١- برنامج مهمَّات العلم السَّنة الأولى، الكتاب الأوَّل، المسجد النَّبوي، ٢٩ صفر١٤٣١هـ
٢- ((برنامج مهمَّات العلم السَّنة الثانية، الكتاب الأوَّل، المسجد النَّبوي، الخميس ٣٠ صفر١٤٣٢هـ))
٣- [[برنامج مهمَّات العلم السَّنة الثالثة، الكتاب الأوَّل، المسجد النَّبوي، ١٤٣٣هـ]] دوِّن فقط المعقد الخامس.

تعليقات

على كتاب

تعظيم العلم

الشَّيخ صالح بن عبد الله العصيمي

حفظه الله

النُّسخة الإلكترونية الثَّالثة

الشيخ لم يراجع التفريغ

بالتنسيق مع موقع: http://www.j-eman.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الحمدُ للهِ الذي صيَّر الدِّين مراتبَ ودرجاتٍ، وجعَلَ للعلمِ به أصولًا ومُهمَّاتٍ.

وأشهدُ أنْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ حقًّا، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبْدُه ورسولُه صِدْقًا.

اللَّهمَّ صلِّ علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آل محمَّدٍ كمَا صلَّيت علىٰ إبراهيمَ وعلىٰ آل إبراهيمَ إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ، اللَّهمَّ بارك علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آل محمَّدٍ كما باركتَ علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيدٌ.

أمَّا بعدُ..

فحدَّثني جماعةٌ من الشُّيُوخِ -وهو أوَّلُ حديثٍ سمِعتُهُ منهم- بإسنادِ كلٍّ إلىٰ سفيانَ بن عُيَيْنَةَ، عن عَمرو بن دينار، عن أبي قابوسَ مولىٰ عبد الله بن عمرو، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ النبيّ ﷺ قال: «**الرَّاحِمُون يرحمُهم الرَّحمنُ تباركَ وتعالىٰ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السَّماء**»، ومن آكد الرَّحمة؛ رحمةُ المعلِّمين بالمتعلِّمين في تلقينِهم أحكامَ الدِّينِ، وترْقِيَتِهم في مراتب اليقين، ومِن طرائقِ رحمتهم إيقافُهم علىٰ مهمَّات العلم بإقرائهم أصولَ المُتُون وتبيين مقاصدِها الكليَّة ومعانيهَا الإجماليَّة؛ ليستفتح بذلك المبتدئون تلقِّيَهم، ويكون جِدَةً للمتوسِّطين فيما يذكِّرُهم، وإيقافًا للمنتهين علىٰ تحقيقِ مسائلِ العلم.

وهٰذا شرحُ (**الكتابُ الأوَّل**) من برنامج مهمَّات العلم من سنته الأولىٰ وهو كتابُ «**تعظيمِ العلم**» لمعدِّ البرنامج صالح بن عبد الله بن حمدٍ العُصيمي.

قال الشَّيخ صالح بن عبد الله بن حمد العُصَيْمِيّ في كتابه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للهِ مَا عَظَّمَهُ مُعظِّمٌ، وَسَارَ إِلَيْهِ رَاغِبٌ مُتعَلِّمٌ.

قولهُ: (وَسَارَ إِلَيْهِ رَاغِبٌ مُتَعَلِّمٌ) السَّيرُ إلىٰ اللهِ يُرادُ به في كلامِ أهلِ العلم: **سُلوكَ الصِّراطِ المستقيم**. كما ذكرهُ ابن رجب في «استنشاقِ نسيمِ الأنس»،(١) وهو سيرُ العبد بقلبه لا ببدنه، وفي بيان آلة السَّيْر يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في كتاب «الفوائد»: (فاعلمْ أنَّ العبدَ إنَّمَا يقطعُ منازلَ السَّير إلىٰ اللهِ بقلبه وهمَّته لا ببدنه). انتهىٰ كلامه. ((وفي هٰذا المعنىٰ أنشد المنشد:

قطع المسافة بالقلوب إليه لا   بالسير فوق مقاعد الركبان))

(١) ((ذكره ابن رجب في كتاب «المحجَّة في سير الدُّلجة»)).

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً نَبْرَأُ بِهَا مِنْ شَرَكِ الْإِشْرَاكِ، فَتُوجِبُ لَنَا النَّجَاةَ مِنْ نَارِ الْـهَلَاكِ.

قوله: (**مِنْ شَرَكِ الْإِشْرَاكِ**) الشَّرَكُ حِبالةُ الصَّائد الَّتي ينصِبُها لِقَنْص الصَّيد، ومن نوابغ الكَلِم عند الأُدباء كما في «نهايةِ الأرَب» وغيره قولهم: (البدعةُ شَرَكُ الشِّرك). بتحريك الرَّاء وتُسَكَّن؛ أي الحِبَالة التي ينِصبُها الشَّيْطانُ للخلق؛ فإذا وقعوا فيها جرَّهم إلىٰ الشِّرْك وجعلهم من أهله.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ رَبُّهُ بِالْـهُدَىٰ وَدِينِ الْـحَقِّ؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَـىٰ الـدِّينِ كُلِّـهِ وَلَـوْ كَـرِهَ الْـمُشْرِكُونَ، فَبَلَّغَ رِسَالَتَهُ وَأَدَّاهَا، وَأَسْلَمَ أَمَانَتَهُ وَأَبْدَاهَا.

انْتَصَبَتْ بِدَعْوَتِهِ أَظْهَرُ الْـحُجَجِ، وَانْدَفَعَتْ بِبَيِّنَاتِهِ الشُّبُهَاتُ وَاللَّجَجُ.

قوله: (وَانْدَفَعَتْ بِبَيِّنَاتِهِ الشُّبُهَاتُ وَاللَّجَجُ) اللَّجَجُ بتحريك الـلَّام مفتوحـةً لا بضـمِّها هـو التَّمـادي في الخصومةِ، كما ذكره ابن سِيدَه والزَّمخشري.

فَوَرَّثَنَا الْمَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ، وَالسُّنَّةَ الغَرَّاءَ، لَا يَتِيهُ فِيهَا مُلْتَمِسٌ، وَلَا يُرَدُّ عَنْهَا مُقْتَبِسٌ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ عَدَدَ مَنْ تَعَلَّمَ وَعَلَّمَ.

أَمَّا بَعْدُ..

فَلَمْ يَزَلِ الْعِلْمُ إِرْثًا جَلِيلًا تَتَعَاقَبُ عَلَيْهِ الْأَمَاثِلُ جِيلًا جِيلًا، لَيْسَ لِطُلَّابِ الْمَعَالِي هَمٌّ سِوَاهُ، وَلَا رَغْبَةَ لَهُمْ فِي مَطْلُوبٍ عَدَاهُ وَكَيْفَ لَا؟! وَبِهِ تُنَالُ سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ وَطِيبُ الْعَيْشَيْنِ.

هُوَ شَرَفُ الْوُجُودِ، وَنُورُ الأَغْوَارِ وَالنُّجُودِ، حِلْيَةُ الأَكَابِرِ وَنُزْهَةُ النَّوَاظِرِ، مَنْ مَالَ إِلَيْهِ نَعِمَ، وَمَنْ جَالَ بِهِ غَنِمَ، وَمَنِ انْقَادَ لَهُ سَلِمَ.

قوله: (وَنُورُ الأَغْوَارِ وَالنُّجُودِ) ((الأغوار جمع غور، و)) الغَوْرُ من الأرض ما اطمأنَّ منها وانخفض، ((والنُّجود جمع نجد)) والنَّجْدُ اسمٌ لما ارتفعَ منها، وغَوْرُ جزيرةِ العرب تِهَامَةُ، وكلُّ ما ارتفعَ عنها فهو عندهم نجدٌ.

وقوله: (حِلْيَةُ الأَكَابِرِ) الحليةُ اسمٌ لما يُتزيَّنُ به، وهي نوعان اثنان:

إحداهما: الحليةُ البَاطنة.

والآخر: الحليةُ الظَّاهرة.

والعلمُ حليةُ الباطن، وما يُرىٰ على الظَّاهِرِ ((من الهدي والدَّلِّ والسَّمت)) فهو من آثاره.

لَوْ كَانَ سِلْعَةً تُبَاعُ لَبُذِلَتْ فِيهِ الْأَمْوَالُ الْعِظَامُ، أَوْ صُعِّدَ فِي السَّمَاءِ لَسَمَتْ إِلَيْهِ نُفُوسُ الْكِرَامِ.

هُوَ مِنَ الْمَتَاجِرِ أَرْبَحُهَا، وَفِي الْمَفَاخِرِ أَشْرَفُهَا، أَكْرَمُ الْمَآثِرِ مَآثِرُهُ، وَأَحْمَدُ الْمَوَارِدِ مَوَارِدُهُ، فَالسَّعِيدُ مَنْ حَضَّ نَفْسَهُ عَلَيْهِ، وَحَثَّ رِكَابَ رُوحِهِ إِلَيْهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ زَهِدَ فِيهِ أَوْ زَهَّدَ، وَأَبْعَدَ عَنْهُ أَوْ بَعَّدَ، أَنْفُهُ بِأَرِيجِ الْعِلْمِ مَزْكُومٌ، وَخَتْمُ الْقَفَى (هَـٰذَا عَبْدٌ مَحْرُومٌ).

وَالْعِلْمُ يَدْخُلُ قَلْبَ كُلِّ مُوَفَّقٍ ... مِنْ غَيْرِ بَوَّابٍ وَلَا اسْتِئْذَانِ
وَيَرُدُّهُ الْمَحْرُومُ مِنْ خِذْلَانِهِ ... لَا تُشْقِنَا اللَّهُمَّ بِالْحِرْمَانِ

وَإِنَّ مِمَّا يَمْلَأُ النَّفْسَ سُرُورًا، وَيَشْرَحُ الصَّدْرَ وَيُمِدُّهُ نُورًا؛ إِقْبَالُ الْخَلْقِ عَلَى مَقَاعِدِ التَّعْلِيمِ، وَتَلَمُّسَهُمْ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ.

وَأَدَلُّ دَلِيلٍ وَأَصْدَقُهُ: تَكَاثُرُ الدُّرُوسِ الْعِلْمِيَّةِ، وَتَوَالِي الدَّوْرَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ، حَلَاوَةً فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَشَجًى فِي حُلُوقِ الْكَفَرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَالدُّرُوسُ مَعْقُودَةٌ، وَالرُّكَبُ مَعْكُوفَةٌ.

قولُه : (وَالرُّكَبُ مَعْكُوفَةٌ) أي محبوسةٌ، **فالعَكْفُ هو الحَبْس واللَّبْث**، وليس المراد وصفُ حركتها، فإنَّما يُقالُ في وصْفِ حركتها: ثَنْيُ الرُّكَب، كما قال زياد بن واصل السُّلمي :

يكفيكَ من إناخةٍ ثَنْيُ الرُّكَب

فالمراد بالعَكْف الإقامةُ على الشَّيء، ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢﴾[الأنبياء] أي مُقيمونَ عليها.

وَالفَوَائِدُ شَارِقَةٌ، وَالنُّفُوسُ تَائِقَةٌ، الأَشْيَاخُ يَنْثِلُونَ دُرَرَ الْعِلْمِ، وَالتَّلَامِذَةُ يَنْظِمُونَ عِقْدَهُ.

قوله: (وَالأَشْيَاخُ يَنْثِلُونَ دُرَرَ الْعِلْمِ) أي يستخرِجُونَها، ومنه قولهم: نَثَلْتُ الكِنانة؛ أي استخرجتُ ما فيها من النَّبل ((والسِّهام))، فالنَّثْلُ هو الاستخراج.

وَإِنَّ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَىٰ هَـٰذِهِ الْـجُمُوعِ الصَّاعِدَةِ، وَالْأَجْيَالِ الْوَاعِدَةِ، إِرْشَادَهَا إِلَىٰ سِرِّ حِيَازَةِ الْعِلْمِ الَّـذِي يُظْفِرُهَا بِمَأْمُولِـهَا، وَيُبَلِّغُهَا مَأْمَنَهَا، رَحْمَةً بِهِمْ مِنَ الضَّيَاعِ فِي صَحْرَاءِ الْآرَاءِ، وَظَلْمَاءِ الْأَهْوَاءِ.

وَإِعْمَالًا لِهَـٰذَا الْأَصْلِ؛ جَمُلَ الْـحَدِيثُ ـ أَيُّهَا الْـمُؤْمِنُونَ ـ عَنْ تَعْظِيمِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ حَظَّ الْعَبْدِ مِنَ الْعِلْمِ مَوْقُوفٌ عَلَى حَظِّ قَلْبِهِ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَإِجْلَالِهِ، فَمَنْ امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِتَعْظِيمِ الْعِلْمِ وَإِجْلَالِهِ صَلَحَ(١) أَنْ يَكُونَ مَحِلًّا لَهُ، وَبِقَدْرِ نُقْصَانِ هَيْبَةِ الْعِلْمِ فِي القَلْبِ يَنْقُصُ حَظُّ الْعَبْدِ مِنْهُ، حَتَّىٰ يَكُونَ مِنَ الْقُلُوبِ قَلْبٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعِلْمِ.

فَمَنْ عَظَّمَ الْعِلْمَ لَاحَتْ أَنْوَارُهُ عَلَيْهِ، وَوَفَدَتْ رُسُلُ فُنُونِهِ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ لِهِمَّتِهِ غَايَةٌ إِلَّا تَلَقِّيهِ، وَلَا لِنَفْسِهِ لَذَّةٌ إِلَّا الفِكْرُ فِيهِ، وَكَأَنَّ أَبَا مُحَمَّدٍ الدَّارِمِيَّ الحَافِظَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَحَ هَـٰذَا الْمَعْنَىٰ، فَخَتَمَ كِتَابَ الْعِلْمِ مِنْ سُنَنِهِ الْـمُسَمَّاةِ بِـ«الْـمُسْنَدُ الْـجَامِعُ» بِبَابٍ فِي إِعْظَامِ الْعِلْمِ.

وَأَعْوَنُ شَيْءٍ عَلَى الْوُصُولِ إِلَىٰ إِعْظَامِ الْعِلْمِ وَإِجْلَالِهِ: مَعْرِفَةُ مَعَاقِدِ تَعْظِيمِهِ، وَهِيَ الْأُصُولُ الْـجَامِعَةُ، الْـمُحَقِّقَةُ لِعَظَمَةِ الْعِلْمِ فِي الْقَلْبِ، فَمَنْ أَخَذَ بِهَا كَانَ مُعَظِّمًا لِلْعِلْمِ مُجِلًّا لَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَلِنَفْسِهِ أَضَاعَ، وَلِهَوَاهُ أَطَاعَ، فَلَا يَلُومَنَّ ـ إِنْ فَتَرَ عَنْهُ ـ إِلَّا نَفْسَهُ، (يَدَاكَ أَوْكَتَا وَفُوكَ نَفَخَ)، وَمَنْ لَا يُكْرِمُ الْعِلْمَ لَا يُكْرِمُهُ الْعِلْمُ.

وَسَنَأْتِي بِالْقَوْلِ ـ بِإِذْنِ اللهِ ـ عَلَىٰ عِشْرِينَ مَعْقِدًا، يُعَظَّمُ بِهَا الْعِلْمِ، مِنْ غَيْرِ بَسْطٍ لِمَبَاحِثِهَا، فَإِنَّ الْـمَقَامَ لَا يَحْتَمِلُ، وَالإِتْيَانُ عَلَى غَايَةِ كُلِّ مَعْقِدٍ يَحْتَاجُ إِلَىٰ زَمَنٍ مَدِيدٍ، وَالْمُرَادُ هُنَا التَّبْصِرَةُ وَالتَّذْكِيرُ، وَقَلِيلٌ يَبْقَىٰ فَيَنْفَعُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُلْقَىٰ فَيُرْفَعُ.

فَخُذْ مِنْ هَـٰذِهِ الْـمَعَاقِدِ بِالنَّصِيبِ الْأَكْبَرِ، تَنَلِ الْـحَظَّ الْأَوْفَرَ مِنْ رِيَاضِ الْفُنُونِ وَحَدَائِقِ الْعُلُومِ، وَإِيَّاكَ وَالْإِخْلَادَ إِلَىٰ مَقَالَةِ قَوْمٍ حُجِبَتْ قُلُوبُهُمْ، وَضَعُفَتْ نُفُوسُهُمْ، فَزَعَمُوا أَنَّ هَـٰذِهِ الْأَحْوَالَ غُلُوٌّ وَتَنَطُّعٌ، وَتَشَدُّدٌ غَيْرُ مُقْنِعٍ، فَقَدْ ضُرِبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ.

فَلَيْسَ مَعَ هَـٰؤُلَاءِ عَلَىٰ دَعْوَاهُمْ مِنْ أَدِلَّةِ الشَّرْعِ مَا يُصَدِّقُهَا، وَلَا مِنْ شَوَاهِدِ الْأَقْدَارِ مَا يُوَثِّقُهَا، وَإِنَّمَا هِيَ عُذْرُ الْبَلِيدِ، وَحُجَّةُ الْعَاجِزِ.

فَأَيْنَ الْغُلُوُّ وَالتَّنَطُّعُ مِنْ شَيْءٍ الْوَحْيُ شَاهِدُهُ، وَالرَّعِيلُ الْأَوَّلُ سَالِكُهُ؟! فَكُلُّ مَعْقِدٍ مِنْهَا ثَابِتٌ بِآيَةٍ

(١) قال الشيخ العصيمي، يجوز فيها الوجهان: الفتح والضَّم: صَلَحَ، صَلُحَ.

مُحْكَمَةٍ، أَوْ سُنَّةٍ مُصَدَّقَةٍ، أَوْ آثَارٍ عَنْ خَيْرِ الْقُرُونِ الْـمَاضِيَةِ.

فَإِذَا وَثِقْتَ بِصِدْقِهَا وَعَقَلْتَ خُبْرَهَا وَخَبَرَهَا، فَلَا تَقْعُدْ هِمَّتُكَ بِخُطْبَةِ الْكَسَلِ وَالتَّوَانِي، تَتَسَلَّلُ إِلَيْهَا وَهِيَ تُجَلْجِلُ: (هَـٰذِهِ أَحْوَالُ مَنْ مَضَىٰ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَخَيْرِ الْوَرَىٰ، فَأَيْنَ الثَّرَىٰ مِنَ الثُّرَيَّا) بَلْ مَنْ سَمَتْ نَفْسُهُ إِلَىٰ مَقَامَاتِهِمْ أَدْرَكَهَا:

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ ... إِنَّ التَّشَبُّهَ بِالكِرَامِ فَلَاحُ

فَأَشْهِدْ قَلْبَكَ هَـٰذِهِ الْـمَعَاقِدَ، وَتَدَبَّرْ مَنْقُولَهَا وَمَعْقُولَهَا وَاسْتَنْبِطْ مَنْطُوقَهَا وَمَفْهُومَهَا، فَالْـمَبَانِي خَزَائِنُ الْـمَعَانِي.

مقصودُ هٰذه الجملة: الإعلامُ بأنَّ نيلَ الطَّالبِ للعلم موقوفٌ علىٰ قدرِ تعظيمِه له؛ فمن عظَّمهُ ناله، ومن لم يُبالِ به حُجِبَ عنه.

وأعونُ شيءٍ للوصول إلىٰ إعظام العلم وإجلاله معرفةُ معاقدِ تعظيمه، وهي الأصولُ الجامعةُ المحقِّقةُ لعظمة العلم في القلب.

وفي هٰذه الرِّسالة ذِكرُ عشرين معقدًا من معاقد تعظيم العلم علىٰ وجه متوسِّطٍ بين الإيجاز والإطناب، فالمرادُ هنا التَّبصرةُ والتَّذكير، (وَقَلِيلٌ يَبْقَىٰ فَيَنْفَعُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُلْقَىٰ فَيُرْفَعُ.) فإنَّ النُّفوسَ إنَّما تُحمدُ وتُمدح بقدر ما تُدرِك، **والعلمُ يُمدحُ بالانتفاع لا بالبسط والاتِّساع**، والشَّريعةُ إنَّما جاءت بإرادةِ نفع الخلق لا بتوسيعِ المعاني المُبيَّنةِ لهم، فإنَّه قد تُوسَّع المعاني بما لا تدركه العُقول، فيكون ذلك حائلًا بينها وبين إصابة مُراد الشَّريعة فيها.

والسَّيرُ علىٰ هٰذه الأصول جادَّةٌ شرعيَّةٌ و((طريقة)) سُنَّةٌ سَنيَّةٌ، وترْكُ النَّاس لها خللٌ عظيمٌ في أخذهم للعلم حتَّىٰ انقلبت عِندهم غُلوًّا وتنطُّعًا، ومن لا يعرفِ الذَّهب يحسبهُ نُحاسًا، وحريٌّ بمن رام اقتناص العلم أن يجتهد في تعرُّف طرائق تعظيمه عند أهله، فإنَّه إذا أخذ بهذه الطَّرائق بحظٍّ وافرٍ وكان معظِّمًا للعلم صَلُح قلبه أن يكون مَحِلًّا له، وإن غفل عن هٰذا الأصل فاتهُ العلم، فلم ينفعهُ قوَّةُ حفظه ولا جودةُ فهمه، فإنَّ العلمَ عظيم ولا يجعلُ الله ﷻ العظيمَ إلَّا في قلبٍ صالحٍ له.

وَقُدِّمَ إقراءُ هٰذا الكتاب رجاءَ إبانةَ مسالك أهل العلم رحمهم الله تعالىٰ في تعظيمه التي تُعَبِّدُ الطَّريقَ لطالبه للوصولِ إليه، فإنَّ من عظَّمَ العلم أصابه ومن لم يعظِّمْه لم يُصبْهُ البتَّة. ((فإنَّ الإنسان لا يقتبسُ العلم بما له من جودة حفظٍ أو فهم، وإنَّما يُستمدُّ العلم بأسبابٍ مقدَّرةٍ شرعًا، من جملتها؛ بل آكدُها علىٰ الإطلاق هو إعظام العلم وإجلالُه، فمن عظَّم العلمَ دخل العلمُ قلبَه، ومن لم يعظِّم العلم، فإنَّ الله

ﷻ يمنعه منه عقوبة له، فإنَّ الدُّرر لا توجد في المزابل، فإنَّما تصلح للأماكن المهيَّأة لها، والقلوب المهيَّأة للعلم هي القلوب الشريفة التي تجل العلم وتعظِّمه، وإنَّما يصلح للعلم من عظَّمه بتوفيق الله وعونه وتسديده وإمداده، كما قال الشَّاعر:

هتف الذَّكاءُ وقال: لستُ بنافعٍ إلَّا بتوفيقٍ من الوهَّاب

فينبغي أن يجعل طالب العلم مقاصد هٰذه الرِّسالة نبراسًا يهتدي به في أخذه العلم كي يحصِّله، فإنَّه إن فاته لم يحصِّلْه بالكليَّة، وتباطؤ سير الخلق في إحراز العلم، ليس مردُّه إلىٰ قُدَرهم من حفظٍ وفهم، كما يتوهَّمه أهل الظَّاهر، وإنَّما مدار الأمر علىٰ إعظام العلم وإجلاله، فإنَّ القلب إذا كُسي بإعظام العلم فتح الله عَزَّوَجَلَّ له موارد الفهم والإدراك، وإذا لم يكن معظِّمًا للعلم حبس الله عَزَّوَجَلَّ عنه سيل المعرفة، وإن كان يوصف بحفظ وفهم، وكم رأينا ورأيتم في الخلق حفَّاظًا أفذاذًا وأذكياء نبلاء؛ لكنَّهم يُحرمون العلم لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يجعل ميراث النُّبوَّة إلَّا في قلوبٍ تصلحُ لحمله، فينبغي أن يلتمس طالب العلم مبتدأ افتتاحه أخذ العلم صلاحيَّة نفسه للعلم، وأوَّل ذلك أن يرعىٰ هٰذا الأصل العظيم، وهو إعظام العلم وإجلاله ومعرفة قدره.))

الْمَعْقِدُ الأَوَّلُ
تَطْهِيرُ وِعَاءِ الْعِلْم

وَهُوَ الْقَلْبُ، فَإِنَّ لِكُلِّ مَطْلُوبٍ وِعَاءً، وَإِنَّ وِعَاءَ الْعِلْمِ الْقَلْبُ، وَوَسَخُ الْوِعَاءِ يُعَكِّرُهُ وَيُغَيِّرُ مَا فِيهِ، وَبِحَسَبِ طَهَارَةِ الْقَلْبِ يَدْخُلُهُ الْعِلْمُ، وَإِذَا ازْدَادَتْ طَهَارَتُهُ ازْدَادَتْ قَابِلِيَّتُهُ لِلْعِلْمِ، وَمَثَلُ الْعِلْمِ فِي الْقَلْبِ كَنُورِ الْمِصْبَاحِ، إِنْ صَفَا زُجَاجُهُ شَعَّتْ أَنْوَارُهُ، وَإِنْ لَطَّخَتْهُ الْأَوْسَاخُ كَسَفَتْ أَنْوَارُهُ.

قوله: (كَسَفَتْ أَنْوَارُهُ) أي ذهبت، فإنَّ الكُسوفَ هو ذهابُ نور الشَّمس أو بعضِه، وذهب أبو حاتمٍ السِّجستاني أحدُ أئمَّة اللُّغة في كتاب «الفرْق» إلىٰ أنَّ ذهابَ نور الشَّمس جميعِه يسمَّىٰ خسوفًا وأمَّا ذهاب بعضه فيسمَّىٰ كسوفًا، والَّذي عليه جمهور أهل اللُّغة هو أنّ الكُسوفَ اسمٌ لذهاب نور الشَّمس جميعه أو بعضه لا فرقَ بين ذلك عندهم.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

فَمَنْ أَرَادَ حِيَازَةَ الْعِلْمِ فَلْيُزَيِّنْ بَاطِنَهُ وَيُطَهِّرْ قَلْبَهُ مِنْ نَجَاسَتِهِ، فَالْعِلْمُ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْقَلْبِ النَّظِيفِ.

وَطَهَارَةُ الْقَلْبِ تَرْجِعُ إِلَىٰ أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: طَهَارَتُهُ مِنْ نَجَاسَةِ الشُّبُهَاتِ.

وَالْآخَرُ: طَهَارَتُهُ مِنْ نَجَاسَةِ الشَّهَوَاتِ.

وَلِمَا لِطَهَارَةِ الْقَلْبِ مِنْ شَأْنٍ عَظِيمٍ، أُمِرَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي أَوَّلِ مَا أُمِرَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ فِي قَوْلِ مَنْ يُفَسِّرُ الثِّيَابَ بِالبَاطِنِ وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ، لَهُ مَأْخَذٌ صَحِيحٌ.

قوله: (وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ، لَهُ مَأْخَذٌ صَحِيحٌ) أي تفسيرُ الثِّيابِ بالباطن، وأنَّ المأمورَ به في هٰذه الآية هو تطهيرُ القلب، ومأخذُ استجادةِ هٰذا القول رعايةُ السِّياق؛ فإنَّ الآيةَ مسبوقةٌ بقوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ ومتبوعةٌ بقوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ والمناسبُ بين هٰذا وذاك أن يكونَ معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ أي: طهِّر أعمالَكَ من الذُّنوب.

والعربُ تقول: فلانٌ نقيُّ الثِّياب؛ أي سالمٌ من الآثام، وعلىٰ هٰذا التَّفسير أكثرُ السَّلف رحمهم الله تعالىٰ كما ذكرهُ ابن جرير الطَّبري في «تفسيره».

فتفسيرُ الآية بالأعمالِ المُلابَسات أصحُّ من تفسيرها بالثِّياب الملبُوسات، فدلالة السِّياق ترجِّح الأوَّل وعليه المعوَّل. ومن القواعد النَّافعة ما ذكرهُ أبو محمَّدٍ ابن عبد السَّلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتاب «الإمام» إذ قال: (والسِّياقُ يُرشدُ إلىٰ تبيين المجملات وترجيح المحتمَلات وتقرير الواضحات) انتهىٰ كلامه، فالسِّياقُ له أثرٌ في فهم الكلام، ولاسيَّما في القرآن الكريم في التَّفريق بين التَّوهُّم والإيهام كما فيه هٰذه الآية؛ فإنَّ العربَ تسمِّي العمل ثوبًا كما تسمِّي ما يُلبس ثوبًا؛ لكنَّ سياقَ الآية مناسبٌ لحملها علىٰ أنَّ المرادَ في قوله تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طهِّر أعمالك من كلِّ ما ينجِّسها، وجِماعُ منجِّساتِ الأعمال ثلاثةٌ، ذكرها ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتاب «الفوائد»:

أحدُها: الشِّرك.

وثانيها: البدعة.

وثالثُها: المعصية.

فآية سورة المدَّثِّر جامعةٌ للأمر بالتَّطهُّر منها جميعًا.

وَإِذَا كُنْتَ تَسْتَحْيِي مِنْ نَظَرِ مَخْلُوقٍ مِثْلِكَ إِلَىٰ وَسَخِ ثَوْبِكَ فَاسْتَحْيِ مِنْ نَظَرِ اللهِ إِلَىٰ قَلْبِكَ وَفِيهِ إِحَنٌ وَبَلَايَا، وَذُنُوبٌ وَخَطَايَا.

قَالَ مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ[1]: حَدَّثَنَا عَمْرُو النَّاقِدُ ، حَدَّثَنَا كَثِيرُ بْنُ هِشَامٍ ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ بُرْقَانَ، عَنْ يَزِيدَ الْأَصَمِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

وفي هٰذا الحديث ((العظيم)) بيانُ أنَّ محلَّ نظرِ اللهِ إلىٰ العبد هو القلبُ والعمل، ليس القلبُ دون العمل، ولا العملُ دون القلب، فطهارةُ القلبِ بلا عمل كذِبٌ وشقاقٌ، وعملٌ بلا طهارةِ قلبٍ نفاقٌ، **فالتَّقوىٰ مؤلَّفةٌ من قلبٍ ((نقي)) طاهرٍ وعملٍ ((صالح)) ظاهرٍ**، ولأجل هٰذا كان النَّظر إليهما جميعًا لا إلىٰ واحدٍ منهما. ((وطهارة القلب بلا عمل كذبٌ وشقاق، وعمل بلا طهارة قلبٍ نفاق، فلا يوجد هٰذا المعنىٰ إلَّا بذاك، ولا ينفصلان حتىٰ يلج الجملُ في سمِّ الخياط.))

---

(١) في (٤٥) ك: البر والصلة والآداب، (١٠) ب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة.

وَاحْذَرْ كَمَائِنَ نَفْسِكَ اللَّاتِي مَتَىٰ خَرَجَتْ عَلَيْكَ كُسِرْتَ كَسْرَ مُهَانِ

مَنْ طَهَّرَ قَلْبَهُ فِيهِ الْعِلْمُ حَلَّ، وَمَنْ لَمْ يَرْفَعْ مِنْهُ نَجَاسَتَهُ وَدَعَهُ الْعِلْمُ وَارْتَحَلَ.

وَإِذَا تَصَفَّحْتَ أَحْوَالَ طَائِفَةٍ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ فِي هَـٰذَا الْـمَعْقِدِ رَأَيْتَ خَلَلًا بَيِّنًا، فَأَيْنَ تَعْظِيمُ الْعِلْمِ مِنِ امْرِئٍ تَغْدُو الشَّهَوَاتُ وَالشُّبُهَاتُ فِي قَلْبِهِ وَتَرُوحُ؟!

تَدْعُوهُ صُورَةٌ مُحَرَّمَةٌ وَتَسْتَهْوِيهِ مَقَالَةٌ مُجْرِمَةٌ، حَشْوُهُ الْـمُنْكَرَاتُ، وَالتَّلَذُّذُ بِالْـمُحَرَّمَاتِ، فِيهِ غِلٌّ وَفَسَادٌ، وَحَسَدٌ وَعِنَادٌ، وَنِفَاقٌ وَشِقَاقٌ، أَنَّىٰ لِـهَؤُلَاءِ وَلِلْعِلْمِ؟! مَا هُمْ مِنْهُ، وَلَا هُوَ إِلَيْهِم.

قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَحِمَهُ اللهُ: حَرَامٌ عَلَىٰ قَلْبٍ أَنْ يَدْخُلَهُ النُّورُ وَفِيهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وفي التَّنزيل قول الله تعالىٰ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[الأعراف:١٤٦]، قال سفيانُ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيرها: (أَحرُمهم فهمَ القرآن)، وقال الفِريابي: (أمنَعُ قلوبهم من التَّدبُّر في أمري)، ((أي: في القرآن)) وفي ذلك يقولُ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ مبيِّنًا أنَّهم عُوقِبوا بما يناسبُ ذنبهم، قال: (فكما استكبروا بغير حقٍّ أذلَّهم الله بالجهل). انتهىٰ كلامه، وإذا صرف الله قلب العبد ((عن الفهم والتَّدبُّر)) لم ينتفع بقوَّة حفظه ولا حسن لفظه ولا جودة فهمه ولا جِدَةِ نهمه، فلا ينتفع بما يعلق في قلبه من ذلك، وليس المرادُ أن لا تكون له مُكنةٌ علىٰ حفظ القرآن؛ **بل ربَّما وُجِد في حفَّاظ القرآن لفظًا من هو متكبِّر؛ بل المرادُ أن يحجُبَه الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **عن فهم آياته والعمل بها**، كما قال ابن الحاج المالكي رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في «المدخل» قال: (ومعلومٌ بالضَّرورة أنَّ بعض المتكبِّرين يحفظُ القرآن والعلم، ولكنَّهم مُنعوا فائدته وهي الفهم والعمل به، وذلك هو المطلوب، فبقي العوام أحسنَ حالًا منهم) انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

فمن يحفظُ لفظًا ويحقِّقُ حرفًا ولا يعمل به، فالعوامُّ خيرٌ منه، وهٰذا هو المرادُ بصرف قلبه عن الآيات، فإنَّها تُصرَفُ عن الفهم والعمل، لا عن ضبطِ الألفاظ، وربَّما يُوجد في الخلق من تستجيدُ ضبطَه للفظه في قرآنٍ أو غيره؛ لكن حاله وحالُ أهل القرآن والعلم بينه وبينهم بونٌ شاسعٌ عظيمٌ، فمردُّ الأمر كلِّه إلىٰ صلاحيَّةِ القلب لحمل القرآنِ والعلم بالفهم والتَّدبُّر.

ومن أمعنَ النَّظر في أحوال الُمدركين المحقِّقين من أهل العلم، وجدَ أنَّ ما يجري علىٰ ألسنتهم وسطَّرته أقلامهم من فتوح الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم إنَّما استمطروهُ بإقبالهم علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، ومن تأمَّلَ في حالهم مع ربِّهم خضوعًا ومحبةً وإقبالًا وإخباتًا وانكسارًا أدركَ أنَّ **مأخذ العلم الأعظم** هو تعلُّقُ القلب بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونزْعُ النَّفس من كلِّ قوَّةٍ تُعوِّل عليها، والمشغولون بقواهم النَّفسيَّة من الفهم والحفظ دون اللِّياذ

بالله والإقبال عليه، لا يُدركون مُرادهم من العلم بالفهم والعمل ؛فيُحجبون عن هٰذا لما تتضمَّنه قلُوبهم من الالتفات إلىٰ غير الله ﷻ والانشغالِ به، وكثيرًا ما يشتغل طالبُ العلم بمآخذ العلم الظَّاهرة كحفظ المتون والحضور علىٰ الأشياخ، ويغفلُ غفلةً عظيمةً عن إقبالِ قلبه علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وتعلُّقِه به، وردِّه الأمرَ كله إليه تضرُّعا ودعاءً وسؤالًا وذكرًا، فإنَّ العلمَ رزقٌ والأرزاقُ بيد الرَّزَّاق ﷻ، فمن تضرَّع إليه وأقبل عليه وأحسنَ الصَّنيعةَ معه، فإنَّ اللهَ أكرمُ الأكرمين وهو يفتحُ لعباده ويَهبَهم من القُدَر ما لا يكون عند نظرائهم إجراءً لرحمته ﷻ عليهم، فإيَّاك يا طالبَ العلم والاغترارَ بجودةِ حفظك أو قوَّةِ فهمك أو كثرةِ إقبالك علىٰ الدُّروس وحضورِك لها، أو معرفتِك بالأشياخ، فإنَّ ذلك لا ينفعك إذا كان قلبُك غافلًا عن الله ﷻ، واعلم أنَّهُ بقدر الإقبال وكثرةِ الأعمال وإحسان الصَّنيعةِ مع الله ﷻ فإنَّ الله يعلِّمك ما لم تعلم، ويفتحُ لك من أبواب الفهم ما لا يكونُ لغيرك، وذلك مَحضُ رحمة الله ﷻ التي تخوضُ فيها، فاعرف السَّبيل إليه وتمسَّك به واسلكه.

((وينبغي أن يُدرك طالب العلم أنَّ أعظم صرفِ القلب عن آيات الله خاصَّة وعن العلم عامَّة هو حرمان العبد من الفهم والعمل، وأمَّا كثرةُ المحفوظ أو غيرُ ذلك من مشاهد العلم الظَّاهرة فإنَّها لا تجدي عن العبد شيئًا، وإنَّما يتفاضل الخلق بمقاديرهم في الفهم، فإنَّ العلم هو الفهم أصلًا، والحفظ آلةً له، ولما ذكر النَّبيُّ ﷺ في حديث ابن مسعود في «الصحيحين» إحدىٰ النعمتين قال: «أو فهمًا آتاه الله رجلًا في القرآن» ولم يذكر ﷺ الحفظ؛ لأنَّ الحفظ يستوي فيه الخلق، بل يوجدُ في أهل النِّفاق؛ بل يوجد في أهل الكفر، فإنَّ من المتخصِّصين في دراسات الاستشراق من يحفظ القرآن كاملا، وقد يكون يهوديًّا أو نصرانيًّا، وليس هٰذا هو الصَّرفُ المخبر عنه في قوله تعالىٰ: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ﴾ وإنَّما الصَّرف المقصود هو صرفُ قلوبهم عن الفهم والعمل.))

الْمَعْقِدُ الثَّاني
إِخْلاصُ النِّيَّةِ فِيه

فَإِنَّ إِخْلَاصَ الْأَعْمَالِ أَسَاسُ قَبُولِهَا وَسُلَّمُ وُصُولِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البَيِّنَة:٥].

وَقَالَ البُخَارِيُّ فِي «الجَامِعِ الـمُسْنَدِ الصَّحِيحِ»، وَمُسْلِمٌ فِي «الْـمُسْنَدِ الصَّحِيحِ» وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عُمَرَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ».

وَمَا سَبَقَ مَنْ سَبَقَ وَلَا وَصَلَ مَنْ وَصَلَ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ إِلَّا بِالإِخْلَاصِ للهِ رَبِّ العَالَمِين.

((هٰذان النَّصَّان الآية والحديث أصلان عظيمان في تقرير الإخلاص لله عز وجل،)) الإخلاصُ شرعًا هو: تصفيةُ القلبِ من إرادةِ غَيرِ الله. وإلىٰ ذلك أشرتُ بقولي:

إخلاصُنا تصفيةٌ للقلبِ مِن   إرادةِ غيرِ اللهِ فاحذرْ يا فَطِن.[١]

((فمن أراد الإخلاص فليصفِّ قلبه من إرادة غير الله، فإذا خلا القلبُ من الإرادات الباطلة وتمحَّض مقصوده في طلب مرضاةِ الله أصاب الإخلاصَ.

وقوله في نظْمِه: (فاحذرْ يا فَطِن) تنبيهٌ إلىٰ أنَّ الإخلاص يحتاج إلىٰ معالجةٍ ومجاهدةٍ لإحرازه والظَّفَر به، فإنَّ المرء إذا كان يعانيه خائفًا من الوقوع في مخالفته أدركه، قال سهلُ بن عبد الله والشَّافعي رحمهما الله: (لا يعرف الرِّياء إلَّا مخلصٌ)، والمعنىٰ أنَّ المخلصَ يتخوَّفُ الرِّياء أن يقع في أعماله فتكون له معرفةٌ فيه.))

---

(١) ((إخلاصُنَا لله صَفُّ القَلْبَ مِنْ   إرادةٍ سواه واحذر يا فطِنْ))

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمَرُّوذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ لِأَبِي عَبْدِ الله -يَعْنِي أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ- وَذَكَرَ لَهُ الصِّدْقَ وَالْإِخْلَاصَ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ الله: بِهَذَا ارْتَفَعَ الْقَوْمُ.

وَإِنَّمَا يَنَالُ الْمَرْءُ الْعِلْمَ عَلَى قَدْرِ إِخْلَاصِه.

وَالْإِخْلَاصُ فِي الْعِلْمِ يَقُومُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أُصُولٍ بِهَا تَتَحَقَّقُ نِيَّةُ الْعِلْمِ لِلْمُتَعَلِّمِ إِذَا قَصَدَهَا:

الْأَوَّلُ: رَفْعُ الْجَهْلِ عَنْ نَفْسِهِ؛ بِتَعْرِيفِهَا مَا عَلَيْهَا مِنَ الْعُبُودِيَّاتِ وَإِيْقَافِهَا عَلَىٰ مَقَاصِدِ الْأَمْرِ وَالنَّهْي.

الثَّانِي: رَفْعُ الْجَهْلِ عَنِ الْخَلْقِ بِتَعْلِيمِهِم وَإِرْشَادِهِم لِمَا فِيهِ صَلَاحُ دُنْيَاهُم وَآخِرَتِهِم.

الثَّالِثُ: إِحْيَاءُ الْعِلْمِ ، وَحِفْظِهِ مِنَ الضَّيَاعِ.

الرَّابِعُ: الْعَمَلُ بِالْعِلْمِ.

فَالْعِلْمُ شَجَرَةٌ، وَالْعَمَلُ ثَمَرَةٌ، وَإِنَّمَا يُرَادُ الْعِلْمُ لِلْعَمَلِ.

ذكرَ المصنِّفُ هنا أصولَ النِّيَّةِ في العلم، فإنَّ النِّيَّةَ في العلمِ أصلٌ أصيلٌ؛ لكنَّ تَبيُّن مآخذِها ممَّا يعزبُ علمه عن كثيرٍ من المشتغلين في العلم، وقد بيَّن أنَّ نيَّة العلم ترجعُ إلىٰ أربعةِ أصولٍ:

أحدُها: رفعُ الجهل عن النَّفس؛ بأن تنوي بتعلُّمك رفع الجهل عن نفسك.

وثانيها: رفعُ الجهل عن الخلق؛ بأن تنوي بتعلُّمك تعليمَ الخلق فيما بعدُ وإرشادَهم.

وثالثها: إحياءُ العلمِ وحفظُه من الضَّياع؛ بأن تنوي أن تكون بتعلُّمك ساعيًا في إحياء العلم وحفظه وصيانته من الضَّياع والذَّهاب، فإنَّ العلمَ إنَّما يذهبُ إذا أُهمل تعلُّمًا وتعليمًا.

ورَابِعها: العملُ بالعلم؛ بأن تنوي بتعلُّمك أن تجتهدَ في العملِ بهذه العلوم التي تعلَّمتها.

وقد أشرتُ إلىٰ هٰذه الأصول الأربعة بقولي:

نِيَّةٌ لِلْعِلْمِ رَفْعُ الْجَهْلِ عَمْ ... عَنْ نَفْسِهِ فَغَيْرِهِ مِنَ النَّسَمِ

وَالثَّالِثُ التَّحْصِينُ لِلْعُلُومِ مِنْ ... ضَيَاعِهَا وَعَمَلٌ بِهِ زُكِنْ[1]

وقوله: (نِيَّةٌ لِلْعِلْمِ رَفْعُ الجَهْلِ عَمْ) يعني من العموم، وذلك العموم مفسَّرٌ بالشَّطر الثَّاني: (عَنْ نَفْسِهِ فَغَيْرِهِ مِنَ النَّسَمِ) أي من الخلق ، (وَالثَّالِثُ التَّحْصِينُ لِلْعُلُوم) يعني الحفظ للعلوم؛ لأنَّ أصلَ الحصن هو ما يُحفظُ فيه الشَّيء، (مِنْ ضَيَاعِهَا وَعَمَلٌ بِهِ زُكِنْ) أي: ثبت.

(١) ((وَبَعْدَهُ التَّحْصِينُ لِلْعُلُومِ مِنْ ... ضَيَاعِهَا وَعَمَلٌ بِهِ زُكِنْ))

وَلَقَدْ كَانَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُ اللهُ يَخَافُونَ فَوَاتَ الْإِخْلَاصِ فِي طَلَبِهِمْ لِلْعِلْمِ فَيَتَوَرَّعُونَ عَنِ ادِّعَائِهِ، لَا أَنَّهُم لَم يُحَقِّقُوه فِي قُلُوبِهِمْ.

فَهِشَامُ الدَّسْتَوَائِي رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: (وَاللهِ مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ: إِنِّي ذَهَبْتُ يَوْمًا أَطْلُبُ الْحَدِيثَ أُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ).

وَسُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: هَلْ طَلَبْتَ الْعِلْمَ لله؟ فَقَالَ: (لله! عَزِيزٌ، وَلَكِنَّه شَيْءٌ حُبِّبَ إِلَيَّ فَطَلَبْتُهُ).

وَمَنْ ضَيَّعَ الْإِخْلَاصَ فَاتَهُ عِلْمٌ كَثِيرٌ وَخَيْرٌ وَفِيرٌ.

وَيَنْبَغِي لِقَاصِدِ السَّلَامَة أَن يَتَفَقَّدَ هٰذَا الْأَصْلَ -وَهُو الْإِخْلَاص- فِي أُمُورِه كُلِّهَا دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا سِرِّهَا وَعَلَنِهَا.

وَيَحْمِلُ عَلَىٰ هٰذَا التَّفَقُّدِ شِدَّةُ مُعَالَجَةِ النِّيَّة.

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: (مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِن نِيَّتِي لِأَنَّهَا تَتَقَلَّبُ عَلَيَّ).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (لِأَنَّهَا تَتَقَلَّبُ عَلَيَّ) ((ذلك)) لأنَّ محلَّ النِّيَّةِ القلب، وهو متقلِّبٌ، كما قال الشَّاعر:

ما سُمِّي القلبُ قلبًا إلَّا من تقلُّبه ... فاحذرْ علىٰ القلبِ من قلبٍ وتحويل

فإذا كان وعاءُ النِّية وهو القلبُ متقلِّبًا تقلَّبت النِّيَّة بتقلُّبه من حالٍ إلىٰ أخرىٰ.

بَلْ قَالَ سُلَيْمَانُ الْهَاشِمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: (رُبَّمَا أُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ وَاحِدٍ وَلِي نِيَّةٌ فَإِذَا أَتَيْتُ عَلَىٰ بَعْضِهِ تَغَيَّرَتْ نِيَّتِي فَإِذَا الْحَدِيثُ الْوَاحِدُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ نِيَّاتٍ).

هٰذا الذي ذكرهُ سليمان الهاشمي رَحِمَهُ اللهُ يُرادُ به تصحيح النِّية، وهو **رَدُّها إلىٰ المأمورِ فيها**(١) **إذا عرضَ لها ما يُغيِّرها أو يُفسدها.**

ومعنىٰ قولنا: (**رَدُّها إلىٰ المأمور فيها**) أي إلىٰ المحكوم به شرعًا، وقولنا: (**ما يغيِّرها**) أي يحوِّلها عن وجهها بإخراجها مِن قصد القُربةِ إلىٰ الإباحةِ المجرَّدة ، وقولُنا: (**أو يُفسدها**) أي يُخرجها من الصَّلاحِ إلىٰ ضدِّه، وهو الإرادةُ المُحرَّمة.

و**تصحيحُ النِّية** ((شيء)) غيرُ تجديدها؛ فإنَّ محلَّ تصحيح النِّية هو إذا عرَضَ لها ما يُغيِّرها أو يفسدها.

وأمَّا **التَّجديد** فإنَّه إنَّما يكونُ إذا عرض للنِّيَّة ما يُضعِفُها إذا طالَ العهد، فيسعىٰ العبدُ في تجديد نيَّته بتحريك قلبه إلىٰ مراده الذي يشتغلُ به، ومُوجبُ التَّجديد استصحابُ ذُكْرِها، فإنَّ العبدَ ربَّما استصحبَ حكمَ نيَّته لئلَّا يقطعها بقاطع؛ لكنَّ قلبَهُ يضعف عن استحضارها فلا يكونُ ذاكرًا لها، فيحتاجُ المرءُ إلىٰ تجديدها.

((فمراتب طلب النِّيّة في العمل ثلاث:

أوَّلها إيجاد النِّيّة وهي الإرادة المصاحبة للعمل.

وثانيها: تصحيح النِّيّة، إذا عرض لها ما يغيرها أو يفسدها.

وثالثها: تجديد النية، وهو استصحاب ذكرها، إذا طال الأمد علىٰ العبد.))

وأضربُ به مثالًا في العلم يتبيَّن به الفرقان بين تصحيح النِّية وتجديدها:

فإنَّ من يأخذُ العلم ليصيبَ به منصبًا من مناصب الدُّنيا أو جاهًا أو مالًا قد ركِبَ نيَّةً فاسدةً فيه فهو يحتاجُ إلىٰ تصحيح تلك النِّيَّة التي تحرِّكه إلىٰ العلم.

وأمَّا من طلب العلم لله تقرُّبًا إليه؛ لكن تمادىٰ به العهدُ حتىٰ ضعُفَ هٰذا المعنىٰ في قلبه، فإنَّه يحتاجُ إلىٰ التَّجديد لا إلىٰ التَّصحيح؛ لأنَّ أصلَ النِّية في نفسها صحيحٌ، وإنَّما يفتقرُ إلىٰ تجديدها بتذكيرِ نفسه حقيقةَ مُراده المحرِّك له في العلم، وعلىٰ قدرِ رعايةِ العبد لجِدَةِ نيَّته تذكُّرًا وتفكُّرًا يكون أخذهُ للعلم.

ورغَّبَ السَّلفُ رحمهم الله تعالىٰ في دوام المحاسبةِ للنَّفس في نيَّاتها ابتغاءَ توثيقِ إصابتها للمراد من

(١) ((به)).

تحريكها، فإنَّ من يُحرِّك نيّته في أوّل يومه لحضور مجالس الدَّرس لا تزالُ تلك النِّيَّة تضعفُ شيئًا فشيئًا بأخذِ اليوم في ساعاته كشُعلة النَّار التي أُوقدت في أوّل أمرها فإنَّها تكون متوهِّجةً شديدةً، فإذا تمادىٰ الزَّمن بها ضعُفت شيئًا فشيئًا، وكذلك نيّتُك يا طالبَ العلم إذا حرَّكتها في أوّل غُدوِّك تطلبُ العلم لله فإنَّك تحتاجُ بين الفيْنَة والفينة إلىٰ تجديدها بتذكير نفسك بها.

واعلموا أنَّ من أعظم مقوِّيات القُلوب امتلاؤها بالنِّية الصَّحيحة، فإنَّ النِّيَّةَ الصَّحيحة تحملُ العبد علىٰ إدراكِ مطلوبه، ولو ضعُفت قُواه البدنيةُ عنه، وكم تَرىٰ ممَّن صحَّت نيتهُ ضعيفَ البدن خَائِرَ القُوىٰ البدنيَّة؛ لكنَّ قلبهُ قويٌّ ثابتٌ في طِلَاب مقصوده، فهو حريصٌ علىٰ استحفاظ ما رتَّبهُ من وردِ يومه قرآنًا أو سنَّةً أو شيئًا من فنون العلم، كما أنَّه حريصٌ علىٰ حضور حِلَق الأشياخ مهما تعدَّدت في يومهِ الذي هو فيه، فَإذَا كان العبدُ محرِّكًا لنيَّته مُراقبًا لها أعانتهُ تلك النِّيَّة علىٰ إدراكِ مطلوبه.

وما سبقَ مَنْ سبق إلَّا بالنِّيةِ الصَّالحة الخَالصة لله ﷻ، وهٰذه المعاني القلبيَّة هي أعظمُ ما ينبغي أن تجعل شُغلك فيه، فإيَّاك أن تكون ظاهريًّا في الطَّلب؛ حريصًا علىٰ تلقُّف مفهوم أو تحفُّظِ منطوق دون رعايةٍ لأمر باطنك؛ بإصلاح نيَّتك وكمال إقبالك علىٰ ربِّك عزَّ وجلَّ.

الْمَعْقِدُ الثَّالِثُ

جَمْعُ هِمَّةِ النَّفْسِ عَلَيْهِ

فَإِنَّ شَعَثَ النَّفْسِ إِذَا جُمِعَ عَلَىٰ الْعِلْمِ الْتَأَمَ وَاجْتَمَعَ، وَإِذَا شُغِلَ بِهِ وَبِغَيْرِهِ ازْدَادَ تَفَرُّقًا وَشَتَاتًا، وَإِنَّمَا تُجْمَعُ الْهِمَّةُ عَلَىٰ الْـمَطْلُوبِ بِتَفَقُّدِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

أَوَّلُهَا: الْحِرْصُ عَلَىٰ مَا يَنْفَع. فَمَتَىٰ وُفِّقَ الْعَبْدُ عَلَىٰ إِلَىٰ مَا يَنْفَعُه حَرَصَ عَلَيْهِ.

ثَانِيهَا: الاسْتِعَانَةُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي تَحْصِيلِهِ:

إِذَا لَم يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَىٰ ... فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

هٰذا بيتٌ مشهورٌ نسبهُ الرَّاغبُ الأصفهاني في «محاضراتِ الأُدباء» إلىٰ عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وذكرَ المقَّري في «نفح الطِّيب» وابنُ أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» بيتًا آخر في زنته ومعناه، وهو:

إِذَا لم يكن عونٌ من اللهِ للفتىٰ ... أتته الرَّزايا من وُجوهِ الفوَائدِ

((أي: من وجوهٍ يظنُّ أنَّها تكسبه فائدة، وتعود عليه بالرَّزايا)) والرَّزايا جمع رزيَّة، وهي المصيبة، ومعنىٰ البيت أنَّه تلحقه مصائب من وجوهٍ ظنَّ أنَّها تنفعهُ.

ونظيرُ هٰذين البيتين أيضًا قول عبد الغفَّار الأخرس:

إذا لم يكن عونٌ من اللهِ للفتىٰ ... فكلُّ معينٍ ما عدا اللهِ خاذِلُ.

((ورُبِّعت هٰذه الأبيات الثلاثة، بقول منشدكم:

إذا لم يكن عونٌ من اللهِ للفتىٰ ... فلن يُدرك الإنسانُ ما هو قاصدُ

فهٰذه أبياتٌ أربعة في بيان أثر فُقدان العون من الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ العبد إذا فقد عون الله فإنَّ أوَّل ما يجني عليه إجتهاده، وأنَّ الرَّزايا -أي المصائب- تأتيه من وجوهٍ يظنُّها فوائد، وأنَّ كلَّ معينٍ عدا الله خاذلٌ له، فلن يُدرك الإنسان مطلبه الذي يرومه.))

ثَالِثُهَا: عَدَمُ الْعَجزِ عَنْ بُلُوغِ الْبُغْيَةِ مِنْهُ.

وَقَد جُمِعْت هٰذِه الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاه مُسْلِمُ بنُ الْحَجَّاج[١] قَال: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر بْن أَبِي شَيْبَة وَابْنُ نُمَيْرٍ قَالَا: حَدَّثنَا عَبْدُ الله بْن إِدْرِيس، عَنْ رَبِيعَة بْن عُثْمَان، عَنْ مُحَمَّد بْن يَحْيَىٰ بْـن حِبَّـان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِي ﷺ قَال: «احْرِص عَلَىٰ مَا يَنْفَعُك وَاسْتَعِن بِالله وَلَا تَعْجِزْ».

فَمَن أَرَادَ جَمْع هِمَّتِه عَلَىٰ الْعِلْم، فَلْيُشْعِلْ فِي نَفْسِه شُعْلَةَ الْحِرْصِ عَلَيْه لِأَنَّه يَنْفَعُـه، بَـلْ كُـلُّ خَيْـرٍ فِـي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة إِنَّمَا هُو ثَمَرَةٌ مِن ثَمَرَات الْعِلْم، وَلْيَسْتَعِنْ بِالله عَلَيْه، وَلَا يَعْجِزْ عَـنْ شَـيْءٍ مِنْـه فَإِنَّـه حِينَئِـذ يُدْرِك بُغْيَتَهُ وَيَفُوزُ بِمَا أَمَّلَه.

قوله: (بَلْ كُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة إِنَّمَا هُو ثَمَرَةٌ مِن ثَمَرَات الْعِلْم) وفي تقرير ذلـك يقـول ابـن القـيم رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في كتاب «مدارج السَّالكين»[٢]: (فأصلُ كلِّ خير هو العلمُ والعدل، وأصلُ كلِّ شر هو الجهـلُ والظُّلم) انتهىٰ كلامه، ولا عدلَ بلا علم، فمن لم يكن عنده علمٌ لم يمكنه أن يعـدل؛ فالحـاكمُ إذا حكـم بين اثنين بلا علمٍ لم يُصب العدلَ في كلِّ حال، والرَّجلُ إذا تزوَّجَ امرأتين فأكثر لم يمكنه العدلُ بينهنَّ بلا علم، فرجعَ أصلُ الخير كله إلىٰ العلم لتوقُّف العدل عليه. ((فمن أصاب العلم عدل، ومـن كـان ذا علـم وعدل فقد أحرز أصل الخير، ومن فقدهما فإنَّه يرجـع إلـىٰ أصـل الجبِلَّـة الإنسـانية والخِلقـة البشـريَّة المذكورة في قول الله عز وجل في وصف الإنسان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[الأحـزاب]، والمخـرج من هاتين الظلمتين ظلمة الظلم والجهل: العلم والعدل، والعدل متوقف علىٰ العلم، فصـار علـىٰ العلـم مدار الأمر كله.))

---

(١) في (٤٦) ك: القدر، (٨) ب: في الأمر بالقوة، وترك العجز، والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله- رقم (٢٦٦٤).

(٢) ((«إغاثة اللَّهفان»))

قَالَ الْـجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللهُ: مَا طَلَبَ أَحَدٌ شَيْئًا بِجِدٍّ وَصِدْقٍ إِلَّا نَالَهُ، فَإِنْ لَمْ يَنَلْهُ كُلَّه نَالَ بَعْضَهُ.

الْجِـدُّ بِالْجِـدِّ وَالْحِرْمَانُ بِالْكَسَلِ   فَانْصَبْ تُصِبْ عَنْ قَرِيبٍ غَايَةَ الْأَمَلِ

الضَّبطان علىٰ الجيم في الكلمة الأولىٰ تقتضي صحتهما جميعًا، فتفتحُ ويقال: الجَد، وتكسر ويقال: الجِد، ووضع الضَّبطين علىٰ الحرف الواحد إعلامٌ أنَّه بهما جميعًا، فيصحُّ في هٰذه الكلمة فتحُ جِيمها وكسرُه، وإذا اجتمعَ حركتان علىٰ حرفٍ فالأوْلىٰ وضعُ الأعلىٰ منهما لغةً أعلىٰ محلًّا، وجعلُ السُّفلىٰ للُّغةِ الأقل، فتضعُ الأرفعَ محلًّا لِما هو أعلىٰ لغةً، وتجعلُ ما دونه لما دونه.

وكان بعضُ فضلاءِ المصحِّحين ونبلاءِ النَّاشرين من القرن السَّابق يعتنون بهٰذا في طِباعة الكُتب العربيَّة من كُتب الدِّيانة وغيرها، حتىٰ إذا ضَعُف العهد صار النَّاس يقتصرون علىٰ حركةٍ واحدة، وربَّما لم يبالوا بالتَّنبيه إلىٰ مسلك اللُّغةِ في نطق كلمةٍ من كلمات كتابٍ ما.

فالطَّبعات القديمة لكتب الأصول كـ «صحيح البخاري» و«صحيح مسلم» ممَّا ينبغي أن يعتني طالب العلم بتحصيلها لأنَّ تلك النَّشرات اعتُنِيَ فيها ببيان ما تحتمله الكلمة من ضبطٍ فأكثر؛ بطباعته علىٰ هٰذه الصُّورة بأن يُجمعَ علىٰ الحرف حركتان، ويراعىٰ ما صحَّ فيهما لغةً أعلىٰ فيُجعلُ أعلىٰ.

فَانْهَضْ بِهِمَّتِكَ وَاسْتَيْقِظْ مِنَ الْغَفْلَةِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا رُزِقَ هِمَّةً عَالِيَةً فُتِحَت له أَبْوَابُ الْـخَيْرَاتِ وَتَسَابَقَتْ إِلَيْه الْـمَسَرَّاتُ.

قَال ابْنُ الْقيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «الْفَوَائِد»: (إِذَا طَلَعَ نَجمُ الْهِمَّةِ فِي ظَلَامِ لَيْلِ الْبَطَالَةِ وَرَدِفَهُ قَمَرُ الْعَزِيمَة أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا).

وَمَنْ تَعَلَّقَتْ هِمَّتُهُ بِمَطْعَمٍ أَوْ مَلْبَسٍ أَوْ مَأْكَلٍ أَوْ مَشْرَبٍ لَمْ يَشَمَّ رَائِحَةَ الْعِلْمِ.

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ لَيْسَ يَنَالُهُ مَنْ هَمُّهُ فِي مَطْعَمٍ أَوْ مَلْبَس
فَاحْرِصْ لِتَبْلُغَ فِيهِ حَظًّا وَافِرًا وَاهْجُرْ لَهُ طِيبَ الْمَنَام وَغَلِّس

وَإِنَّ مِمَّا يُعْلِي الْهِمَّةَ وَيَسْمُو بِالنَّفْسِ اعْتِبَارَ حَالِ مَنْ سَبَقَ وَتَعَرُّفِ هِمَمِ الْقَوْمِ الْـمَاضِينَ.

فَأَبُو عَبْدِ اللهِ أَحْمَدُ بْنِ حَنْبَلٍ كَانَ وَهُوَ فِي الصِّبَا رُبَّمَا أَرَادَ الْـخُرُوجَ قَبْلَ الْفَجْرِ إِلَىٰ حِلَقِ الشُّيُوخِ فَتَأْخُذُ أُمُّهُ بِثِيَابِهِ وَتَقُولُ رَحْمَةً بِهِ: حَتَّى يُؤَذِّنَ النَّاسُ أَوْ يُصْبِحُوا.

وَقَرَأَ الْـخَطِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «صَحِيحَ الْبُخَارِيِّ» كُلِّهِ عَلَىٰ إِسْمَاعِيلَ الْحِيرِيِّ فِي ثَلَاثَةِ مَجَالِسَ اثْنَانِ مِنْهَا فِي لَيْلَتَيْنِ مِنْ وَقْتِ صَلَاةِ الْـمَغْرِبِ إِلَىٰ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَالْيَوْمُ الثَّالِثُ مِن ضَحْوَةِ النَّهَارِ إِلَىٰ صَلَاةِ الْـمَغْرِبِ وَمِنَ الْـمَغْرِبِ إِلَىٰ طُلُوعِ الْفَجْرِ.

قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي «تَارِيخِ الْإِسْلَامِ»: وَهٰذَا شَيْءٌ لَا أَعْلَمُ أَحَدًا فِي زَمَانِنَا يَسْتَطِيعُهُ.

رَحِمَ اللهُ أَبَا عَبْدَ اللهِ كَيْفَ لَوْ رَأَى هِمَمَ أَهْلِ هٰذَا الزَّمَانِ مَاذَا يَقُولُ؟!

هٰذا الذي ذُكِرَ عن ((أبي بكر)) الخطيب ((الحافظ)) رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ممَّا يستبعدُ وقوعه من قعَدت به همَّته، أمَّا أهلُ الجدِّ فيطربون لمثله؛ ولمشقته يستغربهُ الخلق؛ بل ربَّما استصوبوا غيرهُ كما ذكر محمَّدُ بن أبي بكر الشِّلّي في «المشرع الرَّوي» لما ذكر هٰذه الحكاية قال: (والذي في ترجمته أنَّه قرأهُ في خمسةِ أيَّام وهو الصَّواب) انتهىٰ كلامه، وهٰذا الذي صوبّه الشِّلّي وهمٌ محضٌ، وإنَّما أُتي لخلطه بين قراءتين للبخاري وقعتا للخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ فإنَّه قرأ «صحيحَ البخاري» علىٰ شيخهِ إسماعيل الحِيري في ثلاثةِ مجالس علىٰ هٰذا الوجه المذكور هٰهنا، كما قرأهُ في خمسةِ أيَّامٍ علىٰ كريمة المرْوزية إبَّان حَجِّها، فوقع له هٰذا وهٰذا، وما ذهبَ إليه الشِّلّي اقتصارٌ علىٰ إحدىٰ الحكايتين الصَّحيحتين عنه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ وانتقالُ ذهنٍ من قراءة الخطيب في «البخاري» علىٰ كريمةَ إلىٰ قراءته علىٰ إسماعيل الحِيري.

وهٰذا الأمرُ المذكورُ في سيرةِ الخطيب البغدادي هو كما قال الذَّهبيُّ مؤرِّخ الإسلام: (**وَهٰذَا شَيْءٌ لَا أَعْلَمُ أَحَدًا فِي زَمَانِنَا يَسْتَطِيعُهُ**)، انتهىٰ كلامه، وذلك في زمانه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ فكيف بهذا الزَّمان الذي

ضعُفت فيه الهمم وكثُرت فيه الشَّواغل حتىٰ صَارت قِراءةُ البخاري أمرا مُستصعبًا، وربَّما جُعل في عرف المشتغلين بالعلم مصدرًا أو مرجِعًا يُرجع إليه عند الحاجة دون الاشتغالِ بقراءته، ويُشغلُ النَّاسُ بتقطيع زمانهم في قراءةِ كتبٍ لا تنفعهم كما ينفعهم «صحيح البخاري» رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ الذي هو أصحُّ الكتب بعد كتاب الله ﷻ، وليس هٰذا إلَّا من زغلِ العلم ، الذي فشا وشاع حتىٰ صارت هٰذِهِ الأصولُ العظيمة بمنأىٰ عن طلَّاب العلم وصُرِفوا عنها إلىٰ كتبٍ لا تنفعهم في العلم نفعًا عظيمًا.

وينبغي أن لا يبالي طالبُ العلم بحالِ أهل زمانه، وأن لا يَركَن إليهم؛ بل يجتهدُ في سلوك جادَّةِ من سبق، فإنَّ العمدةَ التي ينبغي أن يُعوَّلَ عليها في الأخذِ والاقتباس سلوكُ السَّلف الماضين من أهل العلم رحمهم الله تعالىٰ، فإنَّ الجادةَ التي سلكوا تُبلِّغُك أُمنيتك وتوقِفك علىٰ مأمُولك دون إشغالِك بالفُضول.

وأمَّا طرائقُ المتأخِّرين فإنَّها تُذهِب العُمر وتضيِّعه في شيءٍ كان غيرهُ أنفعَ منه، وإذا لاحَ لك داعٍ إلىٰ جادَّةٍ جديدة وطريقةٍ مستحسنةٍ عصريَّة في أخذ العلم، فلا يهولنَّك إقبال دهماء الخلق عليها، فإنَّ عامَّةَ النَّاس لا عقول لهم؛ بل خُذْ بطريقِ من مضىٰ والزمْ جادَّتهم فإنَّ جادَّتهم هي الطَّريق التي اقتبسوا بها العلم ووصلوا بها إلىٰ مأمولهم، وممَّا يُنبَّه إليه في مثل هٰذا أنَّ كثيرًا من النَّاس صار يكتفي بقراءةِ أو إقراءُ المتون المعتمدة مرَّةً واحدةً ويتشاغلُ بغيرها، وهٰذا من الجهل بحقيقةِ العلم، فإنَّ إعادةَ العبد لما ينفعه ولو كان مِئينَ من المرَّات خيرٌ له من الاشتغال بما لا ينفعه، وانظروا إلىٰ حِكمة الشَّريعة لما رتَّبت قراءة الفاتحة في كلِّ ركعة من ركعات الصَّلوات، ولم يكن ذلك موجِبًا لاستهجانها ولا مُظهرًا لذهاب رونقها وجِدَة معانيها؛ بل يتجدَّدُ للعبد من فهم معانيها وإدراكِ مقاصدها كلَّ مرَّةٍ ما لا يكون له من قبل، وهكذا تَكرارُ قراءة أصولِ العلم وإعادتُها مرَّةً بعد مرَّة يملأُ قلبك بحقائقه، ويجعلُك علىٰ مُكنةٍ منه، وإنَّما كان علمُ من أدرك من العلماءِ الماضين هو ضبطُ هٰذه المتون وتَكرار قراءتها وإقرائِها حتىٰ تثبت في نفسِه ونفوسِ المتعلِّمين، وقدْ ذُكِر من حال شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ إبَّان إقامته في بلدة الدِّلَم أنَّه أقرأ «ثلاثة الأصول» أكثرَ من مائةِ مرَّة، وربَّما لو قلت لطالب علمٍ قرأ «ثلاثة الأصول» أعدْها مرَّةً ثانيةً لاستنكف من ذلك، ولو قلت لشيخٍ متصدِّرٍ للتَّعليم أعِدْ إقراءها لقال: يكفي من ذلك أن أُقرِئها مرَّةً واحدةٍ، ولم يكن هٰذا في عُرف من سبق ولا جادَّتِهم؛ بل كانوا يُعيدون قراءةَ الكتب مرَّةً بعد مرَّةٍ، فأخذُك بهذا الأصل أعظمُ نفعًا لك فاحرص عليه، وكان أبو عبيد القاسم بن سلَّام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ يقول: (عجبتُ لمن يشتغل بالفُضول ويترك الأصول). انتهىٰ كلامه، ومن جملة ما يدخل في معنىٰ قوله الحال التي آل إليها النَّاس بالعزوفِ عن هٰذه المتون العظيمة وعدم رفع الرَّأس إلىٰ تَكرار قراءتها مرَّةً بعد مرَّة تعلُّمًا وتعليمًا.

((ومن أعظم ما ينبغي أن يذكّر به طالب العلم دوام مطالعة سير السَّلف والقراءة فيها، فإنَّ نفسه تشره بذلك، ويطمئنُّ قلبه إلىٰ ما كانوا عليه، فيُعينه علىٰ الاقتداء بهم، قال أبو الفرج ابن الجوزي في «صيد خاطره» ناصحًا طالب العلم: (وامزج طلب الحديث والفقه بقراءة سير السَّلف والزُّهَّاد) انتهىٰ كلامه، ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ أنه أفرد في أخبار جماعة منهم ما إذا طالعه طالبُ العلم حمله علىٰ الاقتداء بهم؛ فذكر أنَّه صنَّف سيرا مفردة لجماعة منهم سفيان الثَّوري والحسن البصري وأحمد بن حنبل ومعروف الكرخي وسعيد بن المسيب رحمهم الله.

والاقتداء بأحوال السَّلف من مفاتحه العظيمة مطالعة سيرهم، فإنَّ طالب العلم إذاكان دائم الاتصال بسيرهم قراءةً ونظرًا وتأمُّلًا وتفكُّرًا حمله ذلك علىٰ الاقتداء والاهتداء، وكان ذلك مؤنِّسًا له في وحشته ودافعًا استمكان غربته علىٰ قلبه، فإنَّ وحشة الغربة إذا هجمت علىٰ القلب كان ما يخففها أن تعلم أنك لاحق ركب قوم مضوا من الأنبياء والشهداء والعلماء والزُّهاد والصالحين وحسن أولئك رفيقا، فخفف ذلك وحشة الغربة ذكر هٰذا المعنىٰ ابن القيم في «مدارج السالكين» في منزلة الغربة منها.

وممَّا ينبغي أن يكون موقدًا همَّة الإنسان موقضًا نفسه إلىٰ المعالي الاقتداء بالسَّلف في طلب العلم، واعتبر هٰذا في حكاية الخطيب البغدادي؛ فإنه قرأ «صحيح البخاري» في ثلاثة أيام، واليوم ضعف النَّاس عن ذلك حتىٰ صار من المقالات الرائجة بينهم أن «صحيح البخاري» كتاب من المصادر العلمية، وغفلوا عن أنَّ «صحيح البخاري» هو الكتاب الأول المعظم بعد القرآن الكريم، وفيه يقول أبو العباس الحفيد في «الوصية الصُّغرىٰ»: (ولا أجد في الكتب المصنفة أجل من كتاب أبي عبد الله البخاري) فإذا لم يكن للإنسان حظٌّ منه، فقد حرم نفسه من حظٍّ عظيم من منابع العلم، وقديما قال أحد رؤوس المعتزلة واسمه أبو سعد السَّمان قال: من لم يكتب الحديث لم يتغرغر بحلاوة الإسلام، وأنا أقول: ومن لم يقرأ البخاري لم يتغرغر بحلاوة العلم . فإن لم يكن للطالب حظ من قراءة البخاري مرة بعد مرة فاته علم كثير ، وفي ترجمة عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي أنه قرأ «صحيح البخاري» أكثر من سبعماءة مرة، وفي «صحيح البخاري» قال أحدهم:

«صحيح البخاري» لو عظَّموه لما خط إلا بماء الذهب، ويكفيك أنه الكتاب الأول بعد كتاب ربنا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -.))

وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْن التَّبَّانِ أَوَّل ابْتِدَائِهِ يَدْرُسُ اللَّيْلَ كُلَّهُ فَكَانَتْ أُمُّهُ تَرْحَمهُ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْقِرَاءَةِ بِاللَّيْلِ، فَكَانَ يَأْخُذُ الْمِصْبَاحَ وَيَجْعَلُهُ تَحْتَ الْجَفْنَةِ -شَيْءٌ مِنَ الْآنِيَةِ الْعَظِيمَةِ- وَيَتَظَاهَرُ بِالنَّوْمِ فَإِذَا رَقَدَتْ أَخْرَجَ الْمِصْبَاحَ وَأَقْبَلَ عَلَى الدَّرْسِ.

وَقَدْ رَأَيْتُ فِي بَعْضِ الْمَجْمُوعَاتِ الْخَطِّيَّةِ فِي مَكْتَبَةٍ نَجْدِيَّةٍ خَاصَّةٍ مِمَّا يُنْسَبُ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْن حَسَن آل الشَّيْخِ صَاحِبِ «فَتْحِ الْمَجِيدِ» قَوْلَهُ رَحِمَهُ اللهُ:

شَمِّرْ إِلَى طَلَبِ الْعُلُومِ ذُيُولَا … وَانْهَضْ لِذَلِكَ بُكْرَةً وَأَصِيلَا
وَصِلِ السُّؤَالَ وَكُنْ هُدِيتَ مُبَاحِثًا … فَالْعَيْبُ عِنْدِي أَنْ تَكُونَ جَهُولَا

فَكُنْ رَجُلًا رِجْلُهُ عَلَى الثَّرَى ثَابِتَةٌ وَهَامَةُ هِمَّتِهِ فَوْقَ الثُّرَيَّا سَامِقَةٍ وَلَا تَكُنْ شَابَّ الْبَدَنِ أَشْيَبَ الْهِمَّةِ، فَإِنَّ هِمَّةَ الصَّادِقِ لَا تَشِيبُ.

قوله: (وَلَا تَكُنْ شَابَّ الْبَدَنِ أَشْيَبَ الْهِمَّةِ) يُقال: أَشيب، ولا يُقال في وصف الرَّجل: شائبٌ، في أصحِّ القولين عند أهل العربيَّة، وهو اسمٌ للرَّجل إذا خَالطه الشَّيبُ، كما أنَّ المرأةَ لا يقال لها: إذا ظهرَ شَيْبُهَا امرأة شيباء؛ بل يقال: امرأةٌ شَمطاء، فيختصُّ وصف الأشيب بالرَّجل فيقال: رجلٌ أشيب، لا شائب، ويُقال: امرأةٌ شمطاء، لا شيباء.

كَانَ أَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ أَحَدُ أَذْكِيَاءِ الْعَالَمِ مِنْ فُقَهَاء الْحَنَابِلَةِ يُنْشِدُ وَهُوَ فِي الثَّمَانِينَ:

مَا شَابَ عَزْمِي وَلَا حَزْمِي وَلَا خُلُقِي ... وَلَا وَلَائِـي وَلَا دِينِي وَلَا كَرَمِي

وَإِنَّمَا اعْتَاضَ شَعْرِي غَيْرَ صِبْغَتِهِ ... وَالشَّيْبُ فِي الشَّعْرِ غَيْرُ الشَّيْبِ فِي

ومن بدائعِ ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ قوله: (العلمُ والعمل توأمانِ أمُّهما علوُّ الهمَّة). انتهىٰ كلامه.

((وذو الهمة العالية لا يمنعه شيء من إدراك مطلوبه ولو كان كبير السِّنّ، فإنَّ أصحاب النَّبيِّ ﷺ نالوا العلم كبارًا، قال البخاري في «صحيحه»: وتعلَّم أصحاب النَّبيِّ ﷺ كبارًا، ولم يمنعهم كبر سنِّهم وتقدُّم أعمارهم عن طلب العلم؛ بل نالوه حتىٰ صاروا أئمَّة الهدىٰ ومصابيح الدُّجىٰ.))

الْـمَعْقِدُ الرَّابِعُ
صَرْفُ الْهِمَّةِ فِيهِ إِلَى عِلْمِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

فَإِنَّ كُلَّ عِلْمٍ نَافِعٍ مَرَدُّه إِلَىٰ كَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ ، وَبَاقِي الْعُلُومِ إِمَّا خَادِمٌ لَهُمَا فَيُؤْخَذُ مِنْهُ مَا تَتَحَقَّقُ بِهِ الْخِدْمَةُ أَوْ أَجْنَبِيٌّ عَنْهُمَا فَلَا يَضُرُّ الْجَهْلُ بِهِ.

وفي هٰذا المعنىٰ يقول ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في «فتح الباري» واصفًا العلوم: (وأنَّ باقي العلوم إمَّا آلاتٌ لفهمهما وهي الضَّالَّةُ المطلوبة، وإمَّا أجنبيَّةٌ عنهما وهي الضَّارةُ المغلوبة). انتهىٰ كلامه، ومعنىٰ (الضَّالة المطلوبة)، أي ما يُنشدُ من ضائعٍ يُفتقرُ ويُحتاجُ إليه، ومعنىٰ (الضَّارة المغلوبة) أي المفسدةُ الُمطَّرحة.

فما كان خادمًا للقرآن والسُّنّة فهمًا واستنباطًا كان من العلوم المطلوبةِ ابتغاءَ اتِّخاذها وسيلةً لفهم القرآن والسُّنّة، وما لم يكن محققًا لخدمة الوحيين من العلوم فإنَّه لا يُحتاج إليه.

فَإِلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ يَرْجِعُ الْعِلْمُ كُلُّهُ وَبِهِمَا أُمِرَ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾[الزُّخْرُف].

وَهَلْ أُوْحِيَ إِلَى أَبِي الْقَاسِمِ ﷺ شَيْءٌ سِوَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ؟! وَمَنْ جَعَلَ عِلْمَهُ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ كَانَ مُتَّبِعًا غَيْرَ مُبْتَدِعٍ وَنَالَ مِنَ الْعِلْمِ أَوْفَرَهُ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُوْدٍ رضي الله عنه: مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

وَقَالَ مَسْرُوقٌ رحمه الله مَا نَسْأَلُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا عِلْمُهُ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا أَنَّ عِلْمَنَا يَقْصُرُ عَنْهُ.

وَيُنْسَبُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ كَانَ يُنْشِدُ:

جَمِيعُ الْعِلْمِ فِي الْقُرْآنِ لَكِنْ ... تَقَاصَرُ عَنْهُ أَفْهَامُ الرِّجَالِ

وفي ذلك يقولُ الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[النَّحل:٨٩]، فجميعُ العلم في القرآن؛ لكنَّ النَّاسَ تتفاوتُ حظوظُهم منه بحسب ما يفتح الله عزَّ وجلَّ لهم من الفهمِ والاستنباطِ فيه.

وقوله: (فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ) أي: ليبحث عن فهمه بتدبر آياته،

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ عِيَاضٍ الْيَحْصُبِيُّ فِي كِتَابِهِ «الْإِلْـمَاع»:

الْعِلْمُ فِـي أَصْـلَيْن لَا يَعْـدُوهُما ... إِلَّا الْـمُضِلُّ عَـنِ الطَّرِيـقِ اللَّاحِـب

عِلْمُ الْكِتَابِ وَعَلِمُ الْآثَـارِ الَّتِـي ... قَدْ اسْنِدَتْ عَـنْ تَـابع عَـنْ صَـاحِب

قوله: (إِلَّا الْـمُضِلُّ عَنِ الطَّرِيقِ اللَّاحِبِ) أي الواضح، فالزَّائغُ عن الطَّريقِ الواضح لا يُوفَّقُ لأصلِ العلم وهو علمُ الكتابِ وعلمُ السُّنَّة.

وَأَعْلَىٰ الْهِمَمِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ «الْفَوَائِد»: (طَلَبُ عِلْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالفَهْمِ عَنِ الله وَرَسُولِه نَفْسَ الْمُرَادِ وَعِلْمُ حُدُودِ الْمُنَزَّلِ).

وَقَدْ كَانَ هٰذَا هُوَ عِلْمُ السَّلَفِ عَلَيْهِمْ رَحْمَةُ اللهِ، ثُمَّ كَثُرَ الْكَلَامُ بَعْدَهُمْ فِيمَا لَا يَنْفَعُ، فَالْعِلْمُ فِي السَّلَفِ أَكْثَرُ وَالْكَلَامُ فِيمَنْ بَعْدَهُمْ أَكْثَرُ.

قَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ: قُلْتُ لِأَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ: الْعِلْمُ الْيَوْمَ أَكْثَرُ أَوْ فِيمَا تَقَدَّمَ؟

فَقَالَ: الْكَلَامُ الْيَوْمَ أَكْثَرُ وَالْعِلْمُ فِيمَا تَقَدَّمَ أَكْثَرُ.

وفي هٰذا المعنىٰ يقولُ ابن أبي العز رَحِمَهُ اللهُ في «شرح الطَّحاويَّة»: (فلذلك صارَ كلامُ المتأخِّرين كثيرًا قليلَ البركةِ، بخلاف كلام المتقدِّمين فإنَّه قليلٌ كثيرُ البركة). ا.هـ

وذكرَ نحو هٰذا المعنىٰ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في «مدارج السَّالكين»، وهٰذا يُصدِّقُ ما ذكرتُ لك آنفًا من أنَّ العلمَ لا يحمدُ بالبسط والاتِّساع وإنَّما يُحمدُ بالنَّفعِ والانتفاع، فإنَّ القليلَ الذي يُلقىٰ فينفع خيرٌ من الكثير الذي يُلقىٰ فيُرفع.

وليس من مدارك العلمِ عند أهله أن تَبسُط عبارتك وتوسِّع إشارتك؛ بل **مأخذُ العلمِ الأعظم** عندهم الإيجاز، وقد بُنيت الشَّريعةُ عليه، وما بُعثَ النَّبيُّ ﷺ إلَّا بجوامع الكلم، فمن نابَ عنه من المعلِّمين قَمِينٌ به أن يسيرَ علىٰ سنَّته ﷺ في ملاحظةِ هٰذا، وقد صارَ من محامدِ المعلِّمين عند المتأخِّرين تطويلُ العبارات وبسْطُ الإشارات، وليس هٰذا ممدوحًا في التَّعليم علىٰ كلِّ حالٍ؛ بل المناسبُ لجُمهور الخلق؛ بل خواصُّ المتعلِّمين من المبتدئين والمتوسِّطين إنَّما هو الإيجازُ الذي يجمعُ لهم الكلم فتُجمَعُ قلوبُهم عليه.

وأمَّا التَّطويلُ فإنَّ ضررهُ عليهم وبيلٌ، فإيَّاك أن تكون مشغوفًا بحضور درسٍ لأنَّ معلِّمك فيه يبقىٰ مدَّةً طويلةً في جملةٍ قصيرةٍ، إذ ليس هٰذا ممدوحًا علىٰ كلِّ حالٍ؛ بل ربَّما كان حَاجِبًا بينك وبين العلم، وحَائِلًا لك دون بلوغك بغيتكَ منهُ.

بخلاف معلِّمك الذي يُلقِّنُك ما تستفتحُ به عِلمَكَ من جوامع المعاني التي تفتقرُ إليها في فهمِ كلام السَّابقين رحمهم الله تعالىٰ، فاحرص علىٰ هٰذا.

واعلم أنَّ الشَّغفَ ببسطِ العبارات من علل المتأخِّرين، وأمَّا المتقدِّمون رحمهم الله فإنَّهم كانوا يميلون إلىٰ إلجام الألسنةِ عن بسط القول، فكان كلامُهم قليلًا، ونفعُهم عظيمًا، بخلاف كلام من تأخَّر فإنَّه كثيرُ الجُمل والعبارات لكنَّه قليل النَّفع والبركات.

الْـمَعْقِدُ الْـخَامِسُ
سُلُوكُ الْجَادَّةِ الْمُوصِلَةِ إِلَيْهِ

لِكُلِّ مَطْلُوبٍ طَرِيقٌ يُوصِلُ إِلَيْهِ فَمَنْ سَلَكَ جَادَّةَ مَطْلُوبِهِ أَوْقَفَتْهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ عَدَلَ عَنْهَا لَمْ يَظْفَرْ بِمَطْلُوبِهِ وَإِنَّ لِلْعِلْمِ طَرِيقًا مَنْ أَخْطَأَهَا ضَلَّ وَلَمْ يَنَلِ الْـمَقْصُودَ، وَرُبَّمَا أَصَابَ فَائِدَةً قَلِيلَةً مَعَ تَعَبٍ كَثِيرٍ.

يَقُولُ الزَّرْنُوجِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «تَعْلِيمِ الْـمُتَعَلِّمِ»: وَكُلُّ مَنْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ ضَلَّ، وَلَا يَنَالُ الْـمَقْصُودَ قَلَّ أَوْ جَلَّ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «الْفَوَائِدِ»: الْـجَهْلُ بِالطَّرِيقِ وَآفَاتِهَا، وَالْـمَقْصُودُ يُوجِبُ التَّعَبَ الْكَثِيرَ مَعَ الْفَائِدَةِ الْقَلِيلَةِ.

وَقَدْ ذَكَرَ هٰذَا الطَّرِيقَ بِلَفْظٍ جَامِعٍ مَانِعٍ مُحَمَّدُ مُرْتَضَىٰ بْنُ مُحَمَّدٍ الزَّبِيدِي صَاحِبُ «تَاجِ الْعَرُوسِ» فِي مَنْظُومَةٍ لَه تُسَمَّىٰ «أَلْفِيَّةُ السَّنَدِ» يَقُولُ فِيهَا:

فَمَا حَوَى الْغَايَةَ فِي أَلْفِ سَنَةْ ... شَخْصٌ فَخُذْ مِنْ كُلِّ فَنٍّ أَحْسَنَهْ
بِحِفْظِ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ ... تَأْخُذُهُ عَلَىٰ مُفِيدٍ نَاصِحِ

وَطَرِيقُ الْعِلْمِ وَجَادَّتُهُ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ أَمْرَيْنِ مَنْ أَخَذَ بِهِمَا كَانَ مُعَظِّمًا لِلْعِلْمِ لِأَنَّهُ يَطْلُبُهُ مِنْ حَيْثُ يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ:

فَأَمَّا **الْأَمْرُ الْأَوَّلُ** فَحِفْظُ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ، فَلَابُدَّ مِنْ حِفْظٍ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَنَالُ الْعِلْمَ بِلَا حِفْظٍ فَإِنَّهُ يَطْلُبُ مُحَالًا.

وَالْـمَحْفُوظُ الْـمُعَوَّلُ عَلَيْهِ هُوَ الْـمَتْنُ الْجَامِعُ لِلرَّاجِحِ أَيِ الْمُعْتَمَدُ عِنْدَ أَهْلِ الْفَنِّ فَلَا يَنْتَفِعُ طَالِبٌ يَحْفَظُ الْمَغْمُورَ فِي فَنٍّ وَيَتْرُكُ مَشْهُورَهُ، كَمَنْ يَحْفَظُ «أَلْفِيَّةَ الْآثَارِيِّ» فِي النَّحْوِ وَيَتْرُكُ «أَلْفِيَّةَ ابْنِ مَالِكٍ».

تضمَّن كلَامُهُ عيبَ الاشتغال بحفظ المتون غير المعتمدة ((عند أهله))، فإنَّ طالبَ العلم ينبغي لهُ أن يكون حريصًا علىٰ حفظِ وقته، ومن جملةِ حفظهِ وقتَه أن يكون ما يَشتغلُ بحفظه هو المتنُ المعتمدُ في الفنّ الذي يَرومُ إدراكَه، أمَّا صرف نفسه إلىٰ حفظ المتونِ غير المعتمدة فإنَّه يُضِرُّ بالطَّالب.

((والمتن المعتمد هو المتن الذي جرىٰ أهل العلم علىٰ اعتباره، وجعلِه أصلًا في تلقِّي العلم وتلقينه، وما خرج عن هٰذا فإنه غير معتمد، فإذا أتيت للنحو مثلا وجدت جملة من النحويات كـ: «ألفية ابن معطي» و«ألفية ابن مالك» و«ألفية السيوطي» و«ألفية الآثاري» و«ألفية الأجهوري» و«ألفية ابن أبي القسط» و«ألفية محمد نور» في آخرين، فإن في النحو نحو عشر ألفيات، لٰكن المتن المعتمد من

المطولات النحوية هو ألفية ابن مالك، فالخروج عن ذلك إلىٰ غيرها يضر طالب العلم، وهٰذا مثال لتقرير الأصل، وهو أن طالب العلم يعول علىٰ المتون الجامعة للراجح.)) ومن هنا قال الزَّبيديُّ منبِّهًا علىٰ هٰذا الأصل: (بِحِفْظِ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِح) فما خرجَ عن ذلك من المتون غير المعتمدة فلا ينبغي للطَّالب أن يتشاغلَ به.

كما أنَّه لا ينبغي للطَّالب أن يتشاغلَ بالنُّسخ الـمصلَحة في المتون المعتمدة، والمُراد بالنُّسخ المُصلَحة: النُّسخ التي جرت فيها أيدي بعضِ المتأخِّرين بالإصلاح والتَّبديل ((والتَّحويل)) لما ذكره مصنِّف متنٍ ما لما يراهُ هٰذا المتأخِّر من أنَّ الصَّوابَ أو الأولىٰ هو أن يكون سياقُ المتن علىٰ هٰذا النَّمط.

فإذا أردتَ أن تحفظَ «ألفية ابن مالك» مثلًا فلا تشتغل بنسخةٍ أُدخلت فيها إصلاحاتُ ابنِ غازي [[المكناسي]] مأخوذةً من شرحه، فإنَّهُ قد أكثرَ منَ الاستدراك علىٰ ابن مالكٍ وإصلاحِ أبيات ألفيته، ومثلُ هٰذا يصلح في الشَّرح بأن يُقال: ولو قال كذا وكذا لكان أصحَّ أو أولىٰ. أمَّا تحويلُ المتنِ المشهورِ المعتمدِ عن وجههِ والأخذِ بنسخةٍ تشتمل علىٰ ذلك فهٰذا غلطٌ.

ومن الشَّائع بأيدي طلبة العلم مما خرج علىٰ هٰذه الصُّورة «ألفية العراقي» فإنَّ ألفية العراقي التي ظهرت وقد عمِلت فيها يد بعض المتأخِّرين بالتَّحويل والتَّبديل بحسَب ما يراه ذلك النَّاشر ممَّا ينبغي أن لا يُعوَّل عليه، ولم يكن ينبغي أن يُدخَلَ هٰذا في صُلب الكتاب؛ بل كان يُستحسن أن يُجعل حاشيةً له لمن رغب أن يطَّلع علىٰ صواب البيت ووجه المستحسن، أمَّا أن يُحوَّلَ أصلُ الكتاب إلىٰ نمطٍ آخر بإدخال متأخِّرٍ، فهٰذا ممَّا لا يُحمد، إلَّا إصلاحُ شيءٍ يتعلَّقُ بخطابِ الشَّرع فهٰذا لا بأسَ به.

فمثلًا كتابُ «العقيدة الواسطية» لأبي العبَّاس ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ليست الآياتُ فيه علىٰ قِراءة حفص؛ لأنَّ أبا العبَّاس لم يكن حفصيَّ التِّلاوة؛ بل كان يقرأُ علىٰ حرف أبي عمرو ابن العلاء ((البصري))، والنُّسخُ العتيقة ومنها نسخةٌ قُرئت علىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية جُعِلت في المواضع المحتملة لوجه أبي عمرو علىٰ ما يقبله، ولما نُشرت في هٰذه البلاد ثم اشتهرت جُعلتِ الآيات فيها علىٰ رواية حفص عن عاصم، فمثل هٰذا مستحسنٌ.

ومثله كذلك إعادة ألفاظ الأحاديث النَّبويَّة إلىٰ نصابها كما هي في الأصول، فإنَّ هٰذا لا يُذمُّ، فمثلًا في أحاديث «الأربعين النَّووية» أحرف لا توافق النُّسخَ التي بأيدينا، فإذا حوِّلت هٰذه الأحرف موافقةً إلىٰ النُّسخ التي بأيدينا لم يكن ذلك مذمومًا.

فمثلا من أحاديث الأربعين حديثُ سفيان بن عبد الله الثَّقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**قل: آمنت بالله ثُمَّ استقم**» والموجودُ في نسخ مسلم التي بأيدينا «**قل: آمنت بالله فاستقم**»، ليسَ فيها ذِكرٌ لـ«ثم» فلو

حُوِّل إلىٰ مثل هٰذا ((ونبه ذلك في الحاشية)) كان ذلك سائغًا. [[مع الإنباه إلىٰ أن ما ذكره النووي لا يقال فيه: إنه خطأ، لأن النووي إنما أثبت تلك الأخبار من نسخ متصلة به بالسماع، فهو صحيح في حق ما أثبته، لٰكِن في حقنا إنما يعوّل علىٰ ألفاظ النسخ التي بأيدينا.]]

أمَّا غيرُ خطاب الشَّرع فلا ينبغي أن يحوَّل.

وممَّا لا يدخل في هٰذا؛ بل هو مستحسن ما يسمَّىٰ بالزِّيادات في المتون التي شُهرت عند الشَّناقطة باسم (الاحمرار)، كاحمرار الحسن بن زين لِلَامية الأفعال، أو احمرار المختار بن بونا لألفية ابن مالك، والمقصود بالاحمرار أبياتٌ من نظم من زادها أُدخلت في ضمن متن ألفية ابن مالك أو لامية الأفعال له لما تتضمَّنه من زيادةِ معنىٰ وبيان مسألة، فهٰذا لا بأس به، ولكن المذمُومَ هو أن تحوَّل النُّسخة في متن ما إلىٰ اختيار متأخِّرٍ عنه كما مثَّلنا.

وَأَمَّا **الْأَمْرُ الثَّانِي** فَأَخذه عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحٍ فَتَفْزَعُ إِلَى شَيْخٍ تَتَفَهَّمُ عَنْهُ مَعَانِيهِ يَتَّصِفُ بِهَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ:

وَأَوَّلُهُمَا الْإِفَادَة وَهِي الْأَهْلِيَّة فِي الْعِلْم، فَيَكُونُ مِمَّن عُرِف بِطَلَبِ الْعِلْمِ وَتَلَقِّيهِ حَتَّىٰ أَدْرَكَ، فَصَارَتْ لَهُ مَلَكَةٌ قَوِيَّةٌ فِيه.

وَالْأَصْلُ فِي هٰذَا مَا أَخْرَجهُ أَبُو دَاوُد رَحِمَهُ اللهُ فِي «سُنَنِهِ» قَالَ: حَدَّثَنَا زُهَيْرُ ابْنُ حَرْبٍ وَعُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَة قَالَا: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنِ الْأَعْمَش عَنْ عَبْدِ الله بْن عَبْدِ الله عَنْ سَعِيدِ بْن جُبَيْر عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُم وَيُسْمَعُ مِمَّن يَسْمَعُ مِنْكُمْ» وَإِسْنَادُهُ قَوِيٌّ.

وَالْعِبْرَةُ بِعُمُوم الْخِطَابِ، لَا بِخُصُوصِ الْـمُخَاطَبِ، فَلَا يَزَالُ مِنْ مَعَالِـمِ الْعِلْمِ فِي هٰذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ يَأْخُذَهُ الْخَالِفُ عَنِ السَّالِفِ.

أَمَّا **الْوَصْفُ الثَّانِي** فَهُوَ النَّصِيحَةُ وَتَجْمَعُ مَعْنَيَيْنِ اثْنَيْن:

أَحَدُهُمَا: صَلَاحِيَّةُ الشَّيْخ لِلاقْتِدَاءِ بِهِ وَالِاهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ وَدَلِّهِ وَسَمْتِهِ.

وَالْآخَرُ: مَعْرِفَتُه بِطَرَائِقِ التَّعْلِيم بِحَيْثُ يُحْسِنُ تَعْلِيمُ الْـمُتَعَلِّم وَيَعْرِفُ مَا يَصْلُحُ لَهُ وَمَا يَضُرُّهُ وَفْقَ التَّرْبِيَةِ الْعِلْمِيَّة الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّاطِبِيُّ فِي الْمُوَافَقَات.

قوله: (بِهَدْيِهِ وَدَلِّهِ وَسَمْتِهِ):

الهدي: اسمٌ للطَّريقةِ التي يكونُ عليها العبد، وهو جامعٌ للسَّمت والدَّلّ، ((وبينهما فرقٌ)).

فإنَّ **الدَّلَّ** هو ((الهدي)) الُمتعلِّق بالصُّورة الظَّاهرة.

والسَّمْتَ هو الهيئةُ في الأفعال اللَّازمة والمتعدِّية[1].

ومن طرائق التَّعليم برنامجُ مهمَّات العلم، فنوره يخرجُ من مشكاة ما ذكره الشَّاطبيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ من معرفة ما يصلحُ للمتعلِّم وإحسان تعليمه، فالنَّاسُ يَحدث لهم مع ضيقِ أزمانهم وكثرةِ أشغالهم أحوالٌ تُوجِبُ طلبَ الأصلح لهم، [[فيحدث لهم من التصرف في العلم ما يكون معينًا لهم علىٰ حفظ العلم والدِّين وعدم ضياعه]]، وفي هٰذا يقول عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: (تحدُث للنَّاس أقضيةٌ بقدر ما يُحدثون من الفساد) اهـ. [[فإنَّ الناس إذا استشرىٰ فيهم الفساد أقيم من الزواجر ما يردعهم عنه مما لم يكن معروفًا من قبل، وكذلك إذا خِيف فوات العلم والدِّين لتغير الأحوال وإختلاف الأوقات أحدث لهم من

---

(١) ((اسم للهيئة المتعلقة بالأفعال اللازمة للعبد أو المتعدية عنه.))

التصرف في العلم ما يعينهم علىٰ حفظ العلم والدين.]]

ومن جملة ما ينبغي أن يُحدَث للنَّاس مراعاةُ أحوالهم في التَّعلُّم والتَّعليم، فليس هٰذا المسلكُ في سرد المتون مع التَّعليق اللَّطيف والتَّنكيت الطَّريف بِدْعًا من القول؛ بل هو مبنيٌّ علىٰ أصلٍ وثيقٍ في أخذ العلم بملاحظةِ أحوالِ النَّاس وحملِهم علىٰ ما يَصلُحون به.

[[فليس هٰذا البرنامج ونظراؤه بِدْعًا من القول في العلم والعمل؛ بل هو مبنيٌّ علىٰ أصل وثيق، وهو الذي ذكره الشاطبي من معرفة طرائق التعليم وإحسان تعليم الناس بملاحظة أحوالهم وحملهم علىٰ ما يصلحون به.

وإذا قال قائل: **فهل كان من مضىٰ ممن يُعتدُّ به يشرح المتون -المشروحة في هٰذا البرنامج- في مثل هٰذه المدد؟**

قيل: **لم يزل الناس علىٰ ذلك، حتىٰ بُلوا بتطويل العبارات،** فإذا أردت أن تعرف صدق ذلك، فإن مفتي البلاد ألسبق شيخنا ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ له شروح محفوظة صوتيا لـ«ثلاثة الأصول» و«القواعد الأربع» و«الواسطية» و«التوحيد» فاستمع إليها وستجد أن المدة التي شرح فيها هٰذه المتون هي في كثير منها أقل من المدة التي نشرح فيها هٰذه المتون. ولم يكن الناس يعرفون تطويل العبارات في التعليم الذي يراد به نفع الناس لجمهور الخلق، فلما غلب علىٰ الناس هٰذا صار مستنكرا عندهم تقليل العبارات، ولو أنهم نظروا إلىٰ مثل ما ذكرنا من الدروس المشروحة لمفتي البلاد الأسبق لعلموا حقيقة ذلك.

وكان ممن تأخر زمنه ممن أدركنا من الطبقة السابقة وهو في طبقة شيوخ الشيخ ابن باز شيخنا عبد العزيز بن مرشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكان متصديا لتعليم العلم غير مشهور عنه بأي أمر من أمور الدنيا، فكان يقرئ في المدة اليسيرة كتبا كثيرة لتفرغه الكامل للعلم مع ملاحظته هٰذا الأصل **وهو تقليل العبارات في تحصيل الإفادات** فتخرّج به أناس كثير.

وأما تطويل العبارة فربما كان مانعا للإنسان من إدراك العلم، وإنما يحسن هٰذا في حال دون حال.

ولسنا بالذين نعيب مطلقا تطويل العبارات لمن يصلح له ويناسب حاله، ولكننا لا نقول: إن تطويل العبارت يضيع العلم؛ بل تقليل العبارات يحفظ العلم، وحمل الناس علىٰ ما يصلح لهم في ضيق أوقاتهم وتغير أحوالهم أمر ينبغي أن يلاحظه مريد الخير بالناس، فإن من أراد أن يقيس حالنا علىٰ حال من مضىٰ أخطأ فيه ، فإن طالب العلم فيمن مضىٰ كان طول يومه فارغا لمعلمه، وأما اليوم فإنه يشغل وجه النهار بدراسة أكاديمية أو عمل، ثم يتخذ من بقية اليوم ما يكون فيه راحته وقضاء حوائجه فلا يخلص له في اليوم الواحد إلا مدة يسيرة، فإذا أريد حفظ العلم لم يكن من العقل عدم ملاحظة تغير أحوال الناس،

بل تكون حال العاقل الحكيم الرشيد مريد النفع للناس أن يُحدث لهم من الأحوال التي يُحفظ بها العلم والدين ما يعينهم علىٰ ذلك.

ومما يُنبّه إليه مما يتعلّق بالجهل بطرائق التعليم أن من الناس -من المعلمين أو المتعلمين- صار يكتفي بقراءة المتون المعتمدة مرة واحدة، ويتشاغل عنها بغيرها، وهٰذا من الجهل بحقيقة العلم؛ فإن العلم محشو في هٰذه المتون، فمن أراد أن يصيبه فليُلِظّ بها وليجتهد في الإقبال عليها وتكريرها مرة بعد مرة، فإن إعادة النظر فيها خير له من جعل وقته في غيرها.

وانظر إلىٰ حكمة الشريعة الغرّاء في تكرار «الفاتحة» في الصلوات، فإنك تقرأ «الفاتحة» في اليوم الواحد مرات ومرات في كل صلاة، فإنه لما عظم قدرها احتيج إلىٰ تكريرها.

ولا يذهب ذلك التكرير رونقها ولا يزيل جدة معانيها؛ بل يزيد بريقها وهجا، ويظهر للإنسان من معانيها إن تدبرها ما لم يكن يعلمه من قبل، كما ذكر أبو العباس ابن تيمية الحفيد رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ.

فاللائق مريد العلم ، أن يديم تكرار ما ينفعه مرة بعد مرة، وأن لا يُقطع عنه بدعوىٰ أن قراءته مرة واحدة كافية في الانتفاع به؛ بل متىٰ كان الشيء نافعا، كان الأنفع للإنسان أن يكثر من تكريره.

وإذا أعيد النافع علىٰ القلب مرة بعد مرة قرّت معانيه في القلب وثبتت.

وقد ذكر من أخبار شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللهُ أن كتاب «ثلاثة الأصول وأدلتها» قرئ عليه في مدينة الدِّلم غبان كان قاضيا لها أكثر من مائة مرة، ولو سألت أحدنا معلِّما أو متعلِّما كم قرأت هٰذا الكتاب أو أقرأته؟ لقال: مرة واحدة، وهٰذا من الغبن المستبين والحرمان المبين الذي يصرف به العبد عن أصول العلم النافعة، وفي مثل هٰذا يقول أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ: عجبتُ لمن ترك الأصول وطلب الفضول. اهـ وجملة ما يندرج في كلامه العزوف عن الأصول المعتمدة والاشتغال بشذور العلم المتفرقة.

وفي منفعة إعادة العلم أنشدتُ أبياتا منها:

لَا تَضْجَرُوا مِنْ كَرَّةِ الإِعَادَهْ ... وَشَمِّرُوا ذَا مَنْهَجُ الإِفَادَهْ
وَالْحَقُّ فِي الْمَعْرُوفِ ... تَكْرِيرُهُ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَهْ
وَأَجْدَرُ(١) الْعُلُومِ أَنْ تُعَادَا ... أُصُولُهَا(٢) وَمَا هَدَىٰ العِبَادَا

(١) بضم النُّون: ما يُنتفع به.

كَـمْ كَـرَّرَ الأَشْـيَاخُ لِلأُصُـولِ وَمَا بُلُـوا بمَـذْهَب الفُضُـولِي(٣)
فَمَـنْ أَرَادَ الْعِلْـمَ بِالإِحْكَـام مُلْتَمِسًـا أَوْ مُرْشِـدَ الأَنَـام(٤)
فَلْيُمسِـكَنْ بعُـرْوَةِ(٥) الْـمُتُونِ ولْيَحْتَفِـلْ بِجَـوْهَرِ الفُنُـونِ
وَلْـيُحْكِمِ الأَلْفَـاظَ وَالْـمَعَانِي مُكَـرِّرًا كَالسَّـبْعِ فِـي الْـمَثَانِي

وهي قصيدو معروفة باسم «منفعة الإعادة» من التمسها وجدها.]]

=

(١) أحقُّها وأولاها.

(٢) الأصول اسمٌ للمتون المعتمدة في الفنون.

(٣) من يتصرَّف في شيءٍ دون إذن أهله.

(٤) الملتمِس: المتعلِّم، والمرشِد: المعلِّم، والأنام: بنو آدم.

(٥) ما يُتعلَّق به.

الْمَعْقِدُ السَّادِسُ

رِعَايَةُ فُنُونِه فِي الْأَخْذِ وَتَقْدِيمِ الْأَهَمّ فَالْمُهِمّ

إِنَّ الصُّورَةَ الْـمُسْتَحْسَنَةَ يَزِيدُ حُسْنُهَا بِتَمَتُّعِ الْبَصَرِ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهَا وَيُفُوتُ مِن حُسْنِهَا عِنْدَ النَّاظِرِ بِقَدْرِ مَا يَحْتَجِبُ عَنْه مِنْ أَجْزَائِهَا.

وَالْعِلْمُ هَكَذَا مِنْ رَعَى فُنُونَهُ بِالْأَخْذِ وَأَصَابَ مِنْ كُلِّ فَنٍّ حَظًّا كَمُلَتْ آلَتُهُ فِي الْعِلْمِ.

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «صَيْدِ خَاطِرِهِ»: جَمْعُ الْعُلُوم مَمْدُوحٌ.

مِنْ كُلِّ فَنٍّ خُذْ وَلَا تَجْهَلْ بِهِ ... فَالْحُرُّ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ الْأَسْرَارِ

يَقُولُ شَيْخُ شُيُوخِنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَانِعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «إِرْشَادِ الطُّلَّابِ»: وَلَا يَنْبَغِي لِلْفَاضِل أَن يَتْرُكَ عِلْمًا مِنَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ الَّتِي تُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّة، إِذَا كَانَ يَعْلَمُ مَنْ نَفْسِهِ قُوَّةً عَلَىٰ تَعَلُّمِهِ، وَلَا يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَعِيبَ الْعِلْمَ الَّذِي يَجْهَلَهُ وَيُزْرِي بِعَالِمِه، فَإِنَّ هٰذَا نَقْصٌ وَرَذِيلَةٌ، فَالْعَاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِعِلْمٍ أَوْ يَسْكُتَ بِحِلْمٍ، وَإِلَّا دَخَلَ تَحْتَ قَوْلِ الْقَائِلِ:

أَتَانِي أَن سَهْلًا ذَمَّ جَهْلا ... عُلومًا لَيْسَ يَعْرِفُهُنَّ سَهْلُ

عُلُومًا لَوْ قَرَاهَا مَا قَلَاهَا ... وَلَكِنَّ الرِّضَا بِالْجَهْلِ سَهْلُ

انْتَهَىٰ كَلَامُه.

وَإِنَّمَا تَنْفَعُ رِعَايَةُ فُنُونِ الْعِلْمِ بِاعْتِمَادِ أَصْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: تَقْدِيمُ الْأَهَمِّ فَالْمُهِمِّ مِمَّا يَفْتَقِرُ إِلَيْه الْـمُتَعَلِّمُ فِي الْقِيَامِ بِوَظَائِفِ الْعُبُودِيَّةِ لِلهِ، سُئِلَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ -إِمَام دَارِ الْهِجْرَةِ- عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ فَقَالَ: حَسَنٌ جَمِيلٌ؛ وَلَكِن انْظُرُ الَّذِي يَلْزَمُكَ مِنْ حِينِ تُصْبِحُ إِلَىٰ حِينِ تُمْسِي فَالْزَمْهُ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْـمُثَنَّى رَحِمَهُ اللَّهُ: مَن شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ الْـمُهِمِّ أَضَرَّ بِالْـمُهِمِّ.

وَقَدِّمِ الْأَهَمَّ إِنَّ الْعِلْمَ جَمّ ... وَالْعُمْرُ طَيْفٌ زَارَ أَو ضَيفٌ أَلَمّ

وَالْآخَرُ: أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ فِي أَوَّلِ طَلَبِهِ تَحْصِيلُ مُخْتَصَرٍ فِي كُلِّ فَنٍّ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَكْمَلَ أَنْوَاعَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ نَظَرَ إِلَىٰ مَا وَافَقَ طَبْعَهُ مِنْهَا وَآنَس مِن نَفْسِهِ قُدْرَةً عَلَيْهِ فَتَبَحَّرَ فِيهِ سَوَاءٌ كَانَ فَنًّا وَاحِدًا أَمْ أَكْثَرَ.

أَمَّا بُلُوغُ الْغَايَةِ فِي كُلِّ فَنٍّ وَالتَّحَقُّقُ بِمَلَكَتِهِ فَإِنَّمَا يُهَيَّأُ لَهُ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي أَزْمِنَةٍ مُتَطَاوِلَةٍ، ثُمَّ يَنْظُرُ الْـمُتَعَلِّم فِيمَا يُمْكِنُهُ مِنْ تَحْصِيلِهَا إِفْرَادًا لِلْفُنُونِ وَمُخْتَصَرَاتِهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، أَوْ جَمْعًا لَهَا

وَالْإِفْرَادُ هُوَ الْـمُنَاسِبُ لِعُمُومِ الطَّلَبَةِ، وَمِنْ طَيَّارِ شِعْرِ الشَّنَاقِطَةِ قَوْلُ أَحَدِهِم:

وَإِنْ تُرِدْ تَحْصِيلَ فَنٍّ تَمِّمَهْ وَعَنْ سِوَاهُ قَبْلَ الِانْتِهَاءِ مَهْ
وَفِي تَرَادُفِ الْعُلُومِ الْـمَنْعُ جَا إِنْ تَوْأَمَانِ اسْتَبَقَا لَنْ يَخْرُجَا

((قوله: (مَا قَلَاهَا) أي: ما أبغضها، القِلَىٰ البغض، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[الضحىٰ]))

قوله: (وَمَن طَيّار شِعْر الشَّنَاقِطَة) البيتُ الطَّيَّار هو المشتهرُ دون معرفة قائله، وإلىٰ ذلك أشرتُ بقولي:

شَائِعُ الْأَبْيَاتِ إِنْ لَمْ يُعْلَمِ قَائِلُهُ الطَّيَّارُ بَيْنَ الْأُمَمِ

وقوله: (قَبْلَ الِانْتِهَاء مَه)، (مَه) كلمة زجرٍ.

وَمَنْ عَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ الْـجَمْعِ جَمَعَ وَكَانَتْ حَالُهُ اسْتِثْنَاءً مِـنَ الْعُمُـومِ، وَمِـنْ نَـوَاقِضِ هٰـذَا الْـمَعْقِدِ الْـمُشَاهَدَةِ: الإِحْجَامُ عَنْ تُنَوِّعِ الْعُلُومِ وَالاسْتِخْفَافُ بِبَعْضِ الْـمَعَارِفِ وَالِاشْتِغَالُ بِمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الْوَلَعِ بِالْغَرَائِبِ، وَكَانَ مَالِكٌ يَقُولُ: شَرُّ الْعِلْمِ الْغَرِيبُ وَخَيْرُ الْعِلْمِ الظَّاهِرُ الَّذِي قَدْ رَوَاهُ النَّاسُ.

الْمَعْقِدُ السَّابِعُ

الْمُبَادَرَةُ إِلَىٰ تَحْصِيلِهِ وَاغْتِنَامِ سِنِّ الصِّبَا وَالشَّبَابِ

فَإِنَّ الْعُمْرَ زَهْرَةٌ: إِمَّا أَنْ تَصِيرَ بِسُلُوكِ الْـمَعَالِي ثَمَرَةً، وَإِمَّا أَنْ تَذْبُلَ وَإِنَّ مِمَّا تُثْمِرُ بِهِ زَهْرَةُ الْعُمُرِ: الْـمُبَادَرَةُ إِلَىٰ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ، وَتَرْكُ الْكَسَلِ وَالْعَجْزِ وَاغْتِنَامُ سِنِّ الصِّبَا وَالشَّبَابِ امْتِثَالًا لِلْأَمْرِ بِاسْتِبَاقِ الْـخَيْرَاتِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾[البقرة:١٤٨].

وَأَيَّامَ الْحَدَاثَةِ فَاغْتَنِمْهَا ... أَلَا إِنَّ الْحَدَاثَةَ لَا تَدُومُ

قَالَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: مَا شَبَّهْتُ الشَّبَابَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَانَ فِي كُمِّي فَسَقَطَ.

وَالْعِلْمُ فِي سِنِّ الشَّبَابِ أَسْرَعُ إِلَىٰ النَّفْسِ وَأَقْوَىٰ تَعَلُّقًا وَلُصُوقًا.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: الْعِلْمُ فِي الصِّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ.

فَقُوَّةُ بَقَاءِ الْعِلْمِ فِي الصِّغَرِ كَقُوَّةِ بَقَاءِ النَّقْشِ فِي الْحَجَرِ، فَمَنِ اغْتَنَمَ شَبَابَهُ نَالَ إِرَبَهُ، وَحَمِدَ عِنْدَ مَشِيبِهِ سُرَاهُ.

اغْتَنِمْ سِنَّ الشَّبَابِ يَا فَتَىٰ ... عِنْدَ الْـمَشِيبِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَىٰ

وَأَضَرُّ شَيْءٍ عَلَىٰ الشَّبَابِ التَّسْوِيفُ وَطُولُ الْأَمَلِ فَيُسَوِّفُ أَحَدُهُم وَيَرْكَبُ بَحْرَ الْأَمَانِيِّ وَيَشْتَغِلُ بِأَحْلَامِ الْيَقَظَةِ، وَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنَّ الْأَيَّامَ الْـمُسْتَقْبَلَةَ سَتَفْرُغُ لَهُ مِنَ الشَّوَاغِلِ وَتَصْفُو مِنَ الْمُكَدِّرَاتِ وَالْعَوَائِقِ.

قولُه: (وَيَشْتَغِلُ بِأَحْلَامِ الْيَقَظَةِ)، (أَحْلَامِ الْيَقَظَةِ) تركيبٌ يُرادُ به ما لا حقيقة له.

وَالْحَالُ الْمَنْظُورَةُ: أَنَّ مَنْ كَبُرَتْ سِنُّهُ كَثُرَتْ شَوَاغِلُهُ وَعَظُمَتْ قَوَاطِعُهُ مَعَ ضَعْفِ الْجِسْمِ وَوَهَنِ الْقُوَىٰ.

وَلَنْ تُدْرَكَ الْغَايَاتِ الْعُظْمَىٰ بِالتَّلَهُّفِ وَالتَّرَجِّي وَالتَّمَنِّي.

وَلَسْتُ بِمُدْرِكٍ مَا فَاتَ مِنِّي   بِـ«لَهْفَ» وَلَا بِـ«لَيْتَ» وَلَا «لَوْ أَنِّي»

وَلَا يُتَوَهَّمُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الْكَبِيرَ لَا يَتَعَلَّمُ بَلْ هَـؤُلَاءِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَعَلَّمُوا كِبَارًا كَمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِي رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ مِن «صَحِيحِه» وَإِنَّمَا يَعْسُرُ التَّعَلُّمُ فِي الْكِبَرِ كَمَا بَيَّنَهُ الْمَاوَرْدِيّ فِي «أَدَب الدُّنْيَا وَالدِّين» لِكَثْرَةِ الشَّوَاغِلِ وَغَلَبَةِ القَوَاطِعِ وَتَكَاثُرِ الْعَلَائِقِ؛ فَمَنْ قَدِرَ عَلَىٰ دَفْعِهَا عَن نَّفْسِهِ أَدْرَكَ الْعِلْمَ.

وَقَدْ وَقَعَ هٰذَا لِجَمَاعَةٍ مِنَ النُّبَلَاءِ طَلَبُوا الْعِلْمَ كِبَارًا فَأَدْرَكُوا مِنْهُ قَدْرًا عَظِيمًا مِنْهُم الْقَفَّالُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ.

الْمَعْقِدُ الثّامِنُ

لُزُوْمُ التَّأنّي فِي طَلَبِهِ وتَرْكُ الْعَجلَةِ

فَإِنَّ تَحْصِيلَ الْعِلْمِ لَا يَكُونُ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِذِ الْقَلْبُ يَضْعُفُ عَنْ ذَلِكَ، وَإِنَّ لِلْعِلْمِ فِيهِ ثِقَلًا كَثِقَلِ الْحَجَرِ فِي يَدِ حَامِلِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [الْمُزَّمِّل] أَيْ: الْقُرْآن، وَإِذَا كَانَ هٰذَا وَصْفُ الْقُرْآنِ الْمُيَسَّرِ كَمَا قال تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾[الْقَمَر:١٧] فَمَا الظَّنُّ بِغَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ، وَقَدْ وَقَعَ تَنْزِيلُ الْقُرْآنِ رِعَايَةً لِهٰذَا الْأَمْرِ مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا بِاعْتِبَارِ الْحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾[الْفُرْقَان]

وَهٰذِهِ الْآيَةُ حُجَّةٌ فِي لُزُومِ التَّأَنِّي فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَالتَّدَرُّجِ فِيهِ وَتَرْكِ الْعَجَلَةِ كَمَا ذَكَرَهُ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي «الْفَقِيه وَالْمُتَفَقِّه» وَالرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي مُقَدِّمَةِ «جَامِع التَّفْسِير».

قولهُ: (رِعَايَةً لِهٰذَا الْأَمْرِ مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا) النَّجمُ هو الوقتُ المضروب، فمعنىٰ الجملة أي: في أوقاتٍ مضروبةٍ معيَّنة ((مقدَّرة)).

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

وَمَنْ شِعْرِ ابْنِ النَّحَّاسِ الْـحَلَبِيِّ قَوْلُه رَحِمَهُ اللهُ:

الْيَوْمَ شَيْءٌ وَغَدًا مِثْلُهُ ... مِن نُخَبِ الْعِلْمِ الَّتِي تُلْتَقَط
يُحَصِّلُ الْمَرْءُ بِهَا حِكْمَةً ... وَإِنَّمَا السَّيْلُ اجْتِمَاعُ النُّقَط

قَال شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاج: اخْتَلَفْتُ إِلَىٰ عَمْرِو بْن دِينَار خَمْسِمِائَة مَرَّة وَمَا سَمِعْت مِنْه إِلَّا مَائَة حَدِيثٍ، فِي كُلِّ خَمْسَةِ مَجَالِس حَدِيث.

وَقَال حَمَّادُ بْن أَبِي سُلَيْمَان لِتِّلْمِيذٍ لَه: تَعَلَّمْ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاث مَسَائِلَ وَلَا تَزِدْ عَلَيْهَا شَيْئًا.

وَمُقْتَضَىٰ لُزُومُ التَّأَنِّي وَالتَّدَرُّجُ الْبَدَاءَةُ بِالْـمُتُون الْقِصَارِ الْـمُصَنَّفَة فِي فُنُونِ الْعِلْم حِفْظًا وَاسْتِشْرَاحًا وَالْمَيْلُ عَنْ مُطَالَعَةِ الْـمُطَوَّلَاتِ الَّتِي لَم يَرْتَفِع الطَّالِبُ بَعْدُ إِلَيْهَا.

وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلنَّظَر فِي الْـمُطَوَّلَاتِ فَقَدْ يَجْنِي عَلَىٰ دِينِهِ، وَتَجَاوُزُ الِاعْتِدَالِ فِي الْعِلْمِ رُبَّمَا أَدَّىٰ إِلَىٰ تَضْيِيعه، وَمِنْ بَدَائِعِ الْحِكَم قَوْلُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الرِّفَاعِيِّ -أَحَدُ شُيُوخِ الْعِلْمِ بِدِمَشْقَ الشَّامِ فِي الْقَرْنِ الْـمَاضِي-: طَعَامُ الْكِبَارِ سُمُّ الصِّغَارِ.

وَصَدَقَ فَإِنَّ الرَّضِيعَ إِذَا تَنَاوَلَ طَعَامَ الْكِبَارِ مَهْمَا لَذَّ وَطَابَ أَهْلَكَهُ وَأَعْطَبَهُ، وَمِثْلُهُ مَنْ يَتَنَاوَلُ الْـمَسَائِلَ الْكِبَارَ مِنَ الْـمُطَوَّلَاتِ يُوَقِّفُ نَفْسَهُ مَعَ ضَعْفِ الْآلَةِ عَلَىٰ خِلَافِ الْعُلَمَاءِ وَتَعَدُّدِ مَذَاهِبِهِم فِي الْـمَنْقُولِ وَالْـمَعْقُولِ.

الْمَعْقِدُ التَّاسِعُ
الصَّبْرُ فِي الْعِلْمِ تَحَمُّلاً وَأَدَاءً

إِذْ كُلُّ جَلِيلٍ مِنَ الْأُمُورِ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالصَّبْرِ، وَأَعْظَمُ شَيْءٍ تَتَحَمَّلُ بِهِ النَّفْسُ طَلَبُ الْمَعَالِي: تَصْبِيرُهَا عَلَيْهِ، وَلَهٰذَا كَانَ الصَّبْرُ وَالْمُصَابَرَةُ مَأْمُورًا بِهِمَا لِتَحْصِيلِ أَصْلِ الإِيمَانِ تَارَةً، وَلِتَحْصِيلِ كَمَالِهِ تَارَةً أُخْرَى كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾[آل عِمْرَان: ٢٠٠]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الْكَهْف:٢٨].

قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ أَبِي كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ هٰذِهِ الْآيَةِ: هِيَ مَجَالِسُ الْفِقْهِ، وَلَنْ يُحَصِّلَ أَحَدٌ الْعِلْمَ إِلَّا بِالصَّبْرِ.

قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ أَبِي كَثِيرٍ أَيْضًا: لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ.

فَبِالصَّبْرِ يُخْرَجُ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَهْلِ.

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: مَنْ لَمْ يَحْتَمِلْ ذُلَّ التَّعْلِيمِ سَاعَةً بَقِيَ فِي ذُلِّ الْجَهْلِ أَبَدًا.

وَبِهِ تُدْرَكُ لَذَّةُ الْعِلْمِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ لَمْ يَحْتَمِلْ أَلَمَ التَّعْلِيمِ لَمْ يَذُقْ لَذَّةَ الْعِلْمِ.

وَلَابُدَّ دُونَ الشُّهْدِ مِنْ سُمِّ لَسْعَةٍ.

قوله: (وَلَابُد دُونَ الشُّهْدِ مِنْ سُمِّ لَسْعَةٍ) الشَّهد بفتح الشِّين وضَمِّها أيضًا هو العسلُ في الشَّمع ودونه إِبَرُ النَّحل التي تلسَعُ من أراده، وكذلك معالي الأمور ((نظير ذلك)) دونها وَخَزَاتُ الألم التي تُصعِّب الوصول إليها، فمن رام أن يصيبها فلابدَّ أن يُشهِدَ قلبه أنَّ دون تلك المعالي أمورٌ عظائم تستوجبُ منه صبرًا عظيمًا وجُهدًا كبيرًا في طِلابها والحرص عليها. ((ومن جملة المعالي بل هو أسُّها ورأسُها: العلم الشَّرعيُّ، ومِن تصبير النَّفس عليه في وخَزَاته جمعُ الإنسان قلبه عليه في مجالسه بأن يكون حاضر الدرس بقلب مقبلا عليه شاهدا قيامه لله بعبادة يتقرَّب إليه، فإنه إذا وجد هٰذا المعنىٰ فيه أعانه علىٰ الصَّبر، فإنَّ الطالب الجالس علىٰ حلْقة العلم إذا أقبل علىٰ الدَّرس بقلبٍ حاضر شاهدًا أنه في مجلس عبادة يتقرَّب به إلىٰ الله أمدَّه ذلك بالصَّبر، وكان من مضىٰ يجلسون في حلق العلم من بعد صلاة الفجر إلىٰ قريب الظهر كما كان عليه منهج المدرسة الرَّحمانية في الهند، وقُدِّر لهم بذلك قراءة الحديث والتَّفسير فيها مرارًا كثيرة، واليوم يصبر النَّاس علىٰ الدراسة النظامية مثل هٰذه المدة أو أكثر وإذا حضروا مجالس العلم في المساجد غابَ عنهم شهودُ هٰذا الأصل؛ لأنَّ الشَّياطين تمنع المرء من مجالس الخير وتحرمه ما

يوصله إلىٰ ذلك، فتجدُه متطلِّبًا في مجلس الدرس متلفِّتًا لا يستطيع أن يصبر فيه، وعلىٰ العبد أن يُراغم نفسه وأن يجاهد شيطانه في الثَّبات في مواقع العبادة فإنَّ الثَّبات المأمور به من أعظم منازله مجالس العلم، ومن حمل علىٰ نفسِه مدَّةً في ذلك استطابت هٰذا وألفته حتىٰ صار عادةً لها لا تنفكُّ عنها، كما كان يُذكر في بعض أحوال السَّلف أنهم كانوا يقفون للمذاكرة عند باب المسجد عند صلاة العشاء فلا يشعرون إلا وقد أذان الفجر، لأنَّ لذة العلم غلبت علىٰ قلوبهم فأنستهُم عادة النوم، فمن غلب علىٰ قلبه حبُّ العلم وقصدُ التَّقرب به إلىٰ الله كان ذلك من أعظم ما يعينه علىٰ الصبر في مجالسه.))

وَكَانَ يُقَالُ: مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْمَصَاعِبَ لَمْ يَنَلِ الرَّغَائِبَ.

وَصَبْرُ الْعِلْمِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: صَبْرٌ فِي تَحَمُّلِهِ وَأَخْذِهِ فَالْحِفْظُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ، وَالْفَهْمُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ، وَحُضُورِ مَجَالِسِ الْعِلْمِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ، وَرِعَايَةُ حَقِّ الشَّيْخِ تَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: صَبْرٌ فِي أَدَائِهِ وَبَثِّهِ وَتَبْلِيغِهِ إِلَىٰ أَهْلِهِ، فَالْجُلُوسُ لِلْمُتَعَلِّمِينَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ، وَإِفْهَامُهُمْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ، وَاحْتِمَالُ زَلَّاتِهِمْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ.

وَفَوْقَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنْ صَبْرِ الْعِلْمِ الصَّبْرُ عَلَىٰ الصَّبْرِ فِيهِمَا وَالثَّبَاتُ عَلَيْهِمَا.

لِكُلٍّ إِلَىٰ شَأْوِ الْعُلَا وَثَبَاتُ ... وَلَكِنْ عَزِيزٌ فِي الرِّجَالِ ثَبَاتُ

قوله: (لِكُلٍّ إِلَىٰ شَأْوِ الْعُلَا وَثَبَاتُ) الشَّأو هو الغاية، والمعنىٰ: لكلٍّ إلىٰ غايات العُلا وثباتٌ وقفزاتٌ في طِلابها؛ ولٰكن يَعِزُّ في الرِّجال الثَّبات علىٰ مطلوبهم، وقديمًا قيل: من ثبَتَ نبَتَ. فإنَّ من له عزيمةٌ فثبت في طِلاب مقصوده وصل إليها. ((وأشار إلىٰ هٰذا المعنىٰ منشدكم في آخر منظومته الهداية:

إنَّ الثَّبات في الرِّجال عَزَّ ... ويغنم الرِّجال منه العِزَّ

فمن أعظم أسباب العز ثبات المرء في طِلابِ مقصوده.))

وَمَنْ يَلْزَمِ الصَّبْرَ يَظْفَرْ بِالرُّشْدِ.

قَالَ أَبُو يَعْلَىٰ الْمَوْصِلِيُّ الْمُحَدِّثُ:

إِنِّي رَأَيْتُ وَفِي الْأَيَّام تَجْرِبَةٌ ... لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً مَحْمُودَةَ الْأَثَرِ

وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ تَطَلَّبَهُ ... واسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ.

الْـمَعْقِدُ الْعَاشِرُ
مُلازَمَةُ آدَابِ الْعِلْمِ

قَال ابْنُ الْقَيِّم رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِه «مَدَارِجِ السَّالِكِين»: أَدَبُ الْـمَرْءِ عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ، وَقِلَّةُ أَدَبِهِ عُنْوَانُ شَقَاوَتِهِ وَبَوَارِهِ، فَمَا اسْتُجْلِبَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ بِمِثْلِ الْأَدَبِ، وَلَا اسْتُجْلِبَ حِرْمَانُهُمَا بِمِثْلِ قِلَّةِ الْأَدَبِ.

وَالْـمَرْءُ لَا يَسْمُو بِغَيْرِ الْأَدَبِ … وَإِنْ يَكُنْ ذَا حَسَبٍ وَنَسَبِ

وَإِنَّمَا يَصْلُحُ لِلْعِلْمِ مَنْ تَأَدَّبَ بِآدَابِهِ فِي نَفْسِهِ وَدَرْسِهِ وَمَعَ شَيْخِهِ وَقَرِينِهِ.

قَالَ يُوسُفُ بْنُ الْحُسَيْنِ: بِالْأَدَبِ تَفْهَمُ الْعِلْمَ.

لِأَنَّ الْـمُتَأَدِّبَ يُرَىٰ أَهْلًا لِلْعِلْمِ فَيُبْذَلُ لَهُ، وَقَلِيلُ الْأَدَبِ يُعَزُّ الْعِلْمُ أَن يُضَيَّعَ عِنْدَه.

سَأَلَ رَجُلٌ الْبُقَاعِيَّ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لَهُ الْبُقَاعِيُّ، فَجَلَسَ الرَّجُلُ مُتَرَبِّعًا، فَامْتَنَعَ الْبُقَاعِيُّ مِنْ إِقْرَائِهِ، وَقَالَ لَهُ: أَنْتَ أَحْوَجُ إِلَىٰ الْأَدَبِ مِنْكَ إِلَىٰ الْعِلْمِ الَّذِي جِئْتَ تَطْلُبُهُ.

وَمِنْ هُنَا كَانَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُ الله يَهْتَمُّونَ بِتَعَلُّمِ الْأَدَبِ كَمَا يَهْتَمُّونَ بِتَعَلُّمِ الْعِلْمِ.

قَالَ ابْنُ سِيرِينَ رَحِمَهُ اللهُ: كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ الْـهَدْيَ كَمَا يَتَعَلَّمُونَ الْعِلْمَ.

بَلْ إِنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُقَدِّمُونَ تَعَلُّمَهُ عَلَىٰ تَعَلُّمِ الْعِلْمِ.

قَال مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ لِفَتَىٰ مِن قُرَيْشٍ: يَا ابْنَ أَخِي تَعَلَّمِ الْأَدَبَ قَبْلَ أَنْ تَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ.

وَكَانُوا يُظْهِرُونَ حَاجَتَهُمْ إِلَيْهِ.

قَال مَخْلَدُ بْنُ الْـحُسَيْنِ لِابْنِ الْـمُبَارَكِ يَوْمًا: نَحْنُ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَىٰ كَثِيرٍ مِن الْعِلْمِ.

وَكَانُوا يُوصُونَ بِه، وَيُرْشِدُونَ إِلَيْه.

قَال مَالِكٌ: كَانَتْ أُمِّي تُعَمِّمُنِي وَتَقُولُ لِي: اذْهَبْ إِلَىٰ رَبِيعَةَ -تَعْنِي ابْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَقِيهَ أَهْلِ الْـمَدِينَةِ فِي زَمَنِهِ- فَتَعَلَّمْ مِنْ أَدَبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ.

وَإِنَّمَا حُرِمَ كَثِيرٌ مِنْ طَلَبَةِ الْعَصْرِ الْعِلْمَ بِتَضْيِيعِ الْأَدَبِ، فَتَرَىٰ أَحَدَهُمْ مُتَّكِئًا بِحَضْرَةِ شَيْخِهِ؛ بَلْ يَمُدُّ إِلَيْهِ رِجْلَيْهِ، وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ عِنْدَهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَنْ إِجَابَةِ هَاتِفِهِ الْـجَوَّالِ أَوْ غَيْرِهِ، فَأَيَّ أَدَبٍ عِنْدَ هَـؤُلَاءِ يَنَالُونَ بِهِ الْعِلْمَ.

أَشْرَفَ اللَّيْثُ بْنُ سَعِيد رَحِمَهُ اللهُ عَلَىٰ أَصْحَابِ الْـحَدِيثِ فَرَأَىٰ مِنْهُمْ شَيْئًا كَأَنَّهُ كَرِهَهُ فَقَالَ: مَا هَـذَا؟ أَنْتُمْ إِلَىٰ يَسِيرٍ مِنَ الْأَدَبِ، أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ.

فَمَاذَا يَقُولُ اللَّيْثُ لَوْ رَأَىٰ حَالَ كَثِيرٍ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ فِي هٰذَا الْعَصْرِ؟!

((قَال مَخْلَدُ بْنُ الْـحُسَيْنِ لِابْنِ الْـمُبَارَكِ يَوْمًا: نَحْنُ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَىٰ كَثِيرٍ مِن الْعِلْمِ.) هٰذا يقوله مخلد في زمانهم وما بالك في زماننا وما أحسن موقع (نَحْنُ) في الإزراء علىٰ النفس وهضمها، وهٰذا مراد مخلد رَحِمَهُ اللهُ فإنه مع تقدمه في العلم والاقتداء والاهتداء به إلا أنه ذكر عادة نفسه وأبناء زمانه إلىٰ الأدب وأن حاجتهم إلىٰ الأدب أكثر من حاجتهم إلىٰ كثير من العلم وإذا كان فيهم مع

كمال أحوالهم فإنه فينا أكثر مع نقص أحوالنا)) .

الْمَعْقِدُ الْحَادِيَ عَشَر
صِيَانَةُ الْعِلْمِ عَمَّا يَشِين
مِمّا يُخَالِفُ الْمُرُوءَة ويخرمُهَا

فَمَنْ لَم يَصُنِ الْعِلْمَ لَمْ يَصُنْهُ الْعِلْمُ، كَمَا قَالَ الشَّافِعِي: وَمَنْ أَخلَّ بِالْمُرُوءَةِ بِالْوُقُوعِ فِيمَا يَشِينُ فَقَدْ اسْتَخَفَّ بِالْعِلْمِ فَلَمْ يُعَظِّمْهُ وَوَقَعَ فِي الْبَطَالَةِ فَتُفْضِي بِهِ الْحَالُ إِلَىٰ زَوَالِ اسْمِ الْعَلَمِ عَنْهُ.

قَالَ وَهْبُ بْن مُنَبِّهٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَا يَكُونُ الْبَطَّالُ مِنَ الْحُكَمَاءِ).

لَا يُدْرِكُ الْعِلْمَ بَطَّالٌ وَلَا كَسِلٌ ... وَلَا مَلُولٌ وَلَا مَنْ يَأْلَفُ الْبَشَرَا

وَجِمَاعُ الْمُرُوءَةِ كَمَا قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْجَدُّ فِي «الْمُحَرَّرِ» وَتَبِعَهُ حَفِيدُهُ فِي بَعْضِ فَتَاوِيهِ: اسْتِعْمَالُ مَا يُجَمِّلُهُ وَيُزَيِّنُهُ وَتَجَنُّبُ مَا يُدَنِّسُهُ وَيَشِينُهُ.

قِيلَ لِأَبِي مُحَمَّدٍ سُفْيَانَ بْن عُيَيْنَةَ قَدْ اسْتَنْبَطْتَ مِنَ الْقُرْآنِ كُلَّ شَيْءٍ فَأَيْنَ الْمُرُوءَةَ فِيهِ؟ قَالَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الْأَعْرَاف] فَفِيهِ الْمُرُوءَةُ وَحُسْنُ الْأَدَب وَمَكَارِم الْأَخْلَاق.

وَمِنْ أَلْزَمِ أَدَبِ النَّفْسِ لِطَّالِبِ تَحَلِّيهِ بالْمُرُوءَةِ وَمَا يحمِلُ عَلَيْهَا، وَتَنَكُّبه خَوَارِمَهَا الَّتِي تُخِلُّ بِهَا كَحَلْقِ لِحْيَتِه فَقَدْ عَدَّهُ فِي خَوَارِمِ الْمُرُوءَةِ ابْنُ حَجَر الْهَيْتَمِي مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَابْنِ عَابِدِينَ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ.

قوله: (وَتَنَكُّبُه خَوَارِمَهَا) الخَوارم جمع خُرْم وهو الشَّقُّ.

وخوارم المروءة مُفسداتها التي ((تضعفها أو)) تذهب بها، فلا يقال في شيءٍ ما: إنَّه خارمٌ للمروءة، إلَّا إذا كان قاضيًا عليها بالنَّقصِ ((أو الإذهاب)) أو الإفسادِ، ((ومنه ما مردُّه إلىٰ الشَّرع، ومنه ما مردُّه إلىٰ العُرْفِ)) ومن جملة ذلك ما سَيُذكر في الكلام المستقبَل.

أَو كَثْرَة الِالْتِفَاتِ فِي الطَّرِيقِ وعدَّهُ مَن خَوارِمِها ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيّ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِي مَن الْـمُتَقَدِّمِينَ.

أَوْ مَدّ الرِّجْلَيْنِ فِي مَجْمَعِ النَّاسِ مِنْ غَيرِ حَاجَةٍ وَلَا ضَرُورَةٍ دَاعِيَةٍ وَعَدَّهُ مِنَ الْـخَوَارِمِ جَماعَةٌ مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ الطَّرْطُوشِي مِنَ الْـمَالِكِيَّةِ وَأَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ قُدَامَةٍ وَأَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ مِنَ الْحَنَابِلَةِ.

أَوْ صُحْبَةُ الْأَرَاذِلِ وَالْفُسَّاقِ وَالْـمُجَّانِ وَالبَطَّالِين وَعَدَّهُ مِنْ خَوارِمِ الْـمُرُوءَةِ جَماعَةٌ مِنْهُمْ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَّالِيّ وَأَبُو بَكْرِ بْنِ الطَّيِّبِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْقَاضِي عِيَاضٍ الْيَحْصُبِيُّ مِنَ الْـمَالِكِيَّةِ.

أَوْ مُصَارَعَةِ الْأَحْدَاثِ وَالصِّغَارِ وَعَدَّهُ مِنَ الْـخَوَارِمِ ابْنُ الْـهُمَامِ وَابْنُ نُجَيْمٍ مِنَ الْـحَنَفِيَّةِ.

وَمَنْ أَخَلَّ بِمُرُوءَتِهِ وَهُوَ يُنْتَسَبُ إِلَىٰ الْعِلْمِ فَقَدْ افْتَضَحَ عِنْدَ الْـخَاصِّ وَالْعَامِّ وَلَمْ يَنَلْ مِنْ شَرَفِ الْعِلْمِ إِلَّا الْـحُطَامَ.

الْمَعْقِدُ الثّاني عَشَرَ

انْتِخَابُ الصُّحْبَةِ الصَّالِحَةِ لَهُ

فَالإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ، وَاتِّخَاذُ الزَّمِيلِ ضَرُورَةٌ لَازِمَةٌ فِي نُفُوسِ الْخَلْقِ.

قوله: (فَالإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ) أي: لابدَّ له من الاجتماعِ بغيره من أبناءِ جنسه، ومشاركةِ بعضهم بعضًا في تحصيلِ ((مقاصدهم و))مصالحهم. وهٰذه الجملةُ (الإِنْسَان مَدَنِيٌّ بِالطَّبْع) مشهورةٌ من كلام الفلاسفة اليونان، ثمَّ شهرها تأصيلًا وتفريعًا ابنُ خلدون رَحِمَهُ اللهُ في «مقدِّمته» ومعناها موجودٌ في القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[الحجرات:١٣] فإنّ **التَّعارُف** المرادُ به المدنيَّة التي تشتمل علىٰ انتفاع الخلق بعضِهم ببعضٍ في أمر معاشهم ومعادهم.

فَيَحْتَاجُ طَالِبُ الْعِلْمِ إِلَىٰ مُعَاشَرَةِ غَيْرِهِ مِنَ الطُّلَّابِ لِتُعِينَهُ هٰذِهِ الْـمُعَاشَرَةُ عَلَىٰ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالِاجْتِهَادِ فِي طَلَبِهِ.

وَالزَّمَالَةُ فِي الْعِلْمِ إِنْ سَلِمَتْ مِنَ الْغَوَائِلِ نَافِعَةٌ فِي الْوُصُولِ إِلَىٰ الْـمَقْصُودِ.

قوله: (إِنْ سَلِمَتْ مِنَ الْغَوَائِلِ) الغوائلُ الدَّواهي التي ترجِعُ علىٰ العلمِ بالضَّرر والإفساد، فالزَّمالةُ محمودةٌ ممدوحةٌ في العلم ما لم تشتمل علىٰ ما يضرُّ به .

وَلَا يَحْسُنُ بِقَاصِدِ الْعُلَا إِلَّا انْتِخَابُ صُحْبَةٍ صَالِحَةٍ تُعِينُهُ فَإِنَّ لِلْخَلِيلِ فِي خَلِيلِهِ أَثَرًا.

قَالَ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالسِّيَاقُ لِأَبِي دَاوُدَ: حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّار، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ وَأَبُو دَاوُدَ، قَالَا: حَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: حَدَّثَنِي مُوسَىٰ بْنُ وِرْدَان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال: «الرَّجُلُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ».

يَقُولُ الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ: لَيْسَ إِعْدَاءُ الْجَلِيسِ لِجَلِيسِهِ بِمَقَالِهِ وَفِعَالِهِ، فَقَطْ، بَلْ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ.

لَا تَصْحَبِ الْكَسْلَانَ فِي حَالَاتِهِ ... كَمْ صَالِحٍ بِفَسَادِ آخَرَ يَفْسُدُ
عَدْوَىٰ الْبَلِيدِ إِلَىٰ الْجَلِيدِ سَرِيعَةٌ ... كَالْجَمْرِ يُوضَعُ فِي الرَّمَادِ فَيَخْمُدُ

وَالْجَلِيدُ هُوَ الْجَادُّ الْحَازِمُ.

إِنَّمَا يَخْتَارُ لِلصُّحْبَةِ مَنْ يُعَاشِرُ لِلْفَضِيلَةِ لَا لِلْمَنْفَعَةِ وَلَا لِلَّذَّةِ فَإِنَّ عَقْدَ الْمُعَاشَرَةِ يُبْرَمُ عَلَىٰ هٰذِهِ الْمَطَالِبِ الثَّلَاثَةُ: الْفَضِيلَةُ وَالْمَنْفَعَةُ وَاللَّذَّةُ، كَمَا ذَكَرَهُ شَيْخُ شُيُوخِنَا مُحَمَّدُ الْخَضِرُ بْنُ حُسَيْنٍ فِي «رَسَائِلِ الإِصْلَاحِ»، فانتَخِبْ صَدِيقَ الْفَضِيلَةِ زَمِيلًا، فَإِنَّكَ تُعْرَفُ بِهِ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اعْتَبِرُوا الرَّجُلَ بِمَنْ يُصَاحِبُ، فَإِنَّمَا يُصَاحِبُ الرَّجُلَ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ.

وَأَنْشَدَ أَبُو الْفَتْحِ الْبُسْتِيُّ لِنَفْسِهِ:

إِذَا مَا اصْطَنَعْتَ امْرَأً فَلْيَكُنْ ... شَرِيفَ النِّجَّارِ زَكِيَّ الْحَسَبِ
فَنَذْلُ الرِّجَالِ كَنَذْلِ النَّبَاتِ ... فَلَا لِلثِّمَارِ وَلَا لِلْحَطَبِ

قوله: (شَرِيفَ النِّجَّارِ) النِّجار -بكسر النُّون وضمِّها- هو الأصلُ، والأنسابُ مؤثِّرةٌ في الطَّبائع كما بيَّنه شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصِّراط المستقيم»، ولذلك لا تُلِمُّ خوارمُ المروءة وقبائحُ العادات إلَّا بساقط الأصل.

يَقُولُ ابْنُ مَانِعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «إِرْشَادِ الطُّلَّابِ» -وَهُو يُوصِي طَالِبَ الْعِلْمِ-:

(وَيَحْذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ مُخَالَطَةِ السُّفَهَاءِ وَأَهْلَ الْـمُجُونِ وَالوَقَاحَةِ وَسِيِّئِي السُّمْعَةِ وَالْأَغْبِيَـاءِ وَالْبُلَـدَّاءِ فَإِنَّ مُخَالَطَتَهُم سَبَبَ الْحِرْمَانِ وَشَقَاوَةِ الإِنْسَانِ).

وَكَأَنَّ هٰذَا عَيْنُ قَوْلِ سُفْيَانَ بْنُ عُيَيْنَةَ: (إِنِّي لأَحْرِمُ جُلَسَـائِي الْحَـدِيثَ الْغَرِيـبَ لِمَوْضِـعِ رَجُـلٍ وَاحِـدٍ ثَقِيلٍ).

فَقَدْ يُحْرَمُ الْـمُتَعَلِّمُ الْعِلْمَ لِأَجْلِ صَاحِبِهِ فَاحْذَرْ هٰذَا الصِّنْفَ وَإِنْ تَزَيَّا بِزِيِّ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ يُفْسِدُكَ مِنْ حَيْـثُ لَا تُحِسُّ.

((قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِنِّي لأُحْرَمُ جُلَسَائِي الْحَدِيثَ الْغَرِيبَ) يعني الحـديث الـذي يسـتفاد لعلـوه أو لمحـل معناه)).

الْمَعْقِدُ الثّالِثُ عَشَرَ
بَذْلُ الْجُهْدِ فِي تَحفُّظِ الْعِلْم
وَالْمُذَاكَرَة بِهِ وَالسُّؤَال عَنْهُ

إِذْ تَلَقِّيه عَنِ الشُّيُوخِ لَا يَنْفَعُ بِلَا حِفْظٍ لَهُ، وَمُذَاكَرَةٍ بِهِ، وَسُؤَالٍ عَنْه، فَهَؤُلَاءِ تُحَقِّقُ فِي قَلْبِ طَالِبِ الْعِلْمِ تَعْظِيمِهِ، بِكَمَالِ الالْتِفَاتِ إِلَيْهِ وَالاشْتِغَالِ بِهِ، فَالْحِفْظُ خَلْوَةٌ بِالنَّفْسِ، وَالْمُذَاكَرَةُ جُلُوسٌ إِلَىٰ الْقَرِينِ وَالسُّؤَالُ إِقْبَالٌ عَلَى الْعَالِمِ.

فَبِالْحِفظِ يُقَرَّرُ الْعِلْمُ فِي الْقَلْبِ وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ جُلُّ هِمَّةِ الطَّالِبِ مَصْرُوفًا إِلَىٰ الْحِفْظِ وَالْإِعَادَةِ كَمَا يَقُولُهُ ابْنُ الْجَوْزِي رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَيْدِ خَاطِرِه»: وَلَمْ يَزَلِ الْعُلَمَاءُ الْأَعْلامُ يَحُضُّونَ عَلَىٰ الْحِفْظِ وَيَأْمُرُونَ بِهِ.

قَالَ عُبَيْدُالله بْنُ الْحَسَنِ: وَجَدْتُ أَحْضَر الْعِلْم مَنْفَعَةً مَا وَعَيْته بِقَلْبِي وَلُكْتُهُ بِلِسَانِي.

قوله: (وَلُكْتُهُ بِلِسَانِي) مأخوذٌ من قولهم: لَاكَ الشَّيءَ في فمه؛ أي عَلَكَهُ وتحرَّك به لسانُه، فمعنىٰ قول عُبيد الله هٰذا: ما حرَّكْتُ به لساني متحفِّظًا له.

ومن قواعِدِ العلم أنَّ القراءةَ التي تُرادُ للحفظ يُرفعُ فيها الصَّوتَ والقراءةُ التي يرادُ فيها الفهم يخفضُ فيها الصَّوت؛ لأنَّ رفعَ الصَّوتِ مناسبٌ للحفظ من جهةِ أنَّ الإنسانَ يحفظُ ببصره وبسمع أُذُنه، وخفض الصَّوت مناسبٌ للفهم لما فيه من جمعِ القلبِ علىٰ المقروء ، فإذا خَفَضَ صوتَه لم يشوِّش علىٰ قلبه بقوَّةِ صوته فيجتمعُ القلبُ علىٰ تفهُّمِ ما يريد، فينبغي أن يراعي طالبُ العلم هٰذا في مقروئه، فإن كان متحفِّظًا لشيءٍ فليرفع صوتَه به، وإن كان متفهِّمًا فليخفض صوته به.

وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا ابْنَ عُثَيْمِين رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: حَفِظْنَا قَلِيلًا وَقَرَأْنَا كَثِيرًا فَانْتَفَعْنَا بِمَا حَفِظْنَا أَكْثَر مِنِ انْتِفَاعِنَا بِمَا قَرَأْنَا.

لَيْسَ بِعِلْمٍ مَا حَوَى الْقِمَطْرُ مَا الْعِلْمُ إِلَّا مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ.

قوله: (مَا حَوَى الْقِمَطْر) القِمَطر -بكسر القاف وفتح الميم- هو وعاءٌ تُصان فيه الكتبُ وتحفظُ فيما سبق، يشبه الحقيبةَ التي يتَّخذُها النَّاسُ اليومَ مقامه.

وَالْمُتَلَمِّسُ لِلْعِلْمِ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ الْحِفْظِ وَلَا يَجْمُلُ بِهِ أَنْ يُخْلِي نَفْسَهُ مِنْهُ، وَإِذَا قَدِرَ عَلَى مَا كَانَ يَصْنَعُ ابْنُ الْفُرَاتِ رَحِمَهُ اللهُ فَلْيَأْخُذْ بِهِ، فَقَدْ كَانَ لَا يَتْرُكُ كُلَّ يَوْمٍ إِذَا أَصْبَحَ أَنْ يَحْفَظَ شَيْئًا وَإِنْ قَلَّ وَمَنْ عَقَلَ هَذَا الْمَعْنَى لَمْ يَزَلْ مِنَ الْحِفْظِ فِي ازْدِيَادٍ فَلَا يَنْقَطِعُ عَنْهُ حَتَّى الْمَوْتِ، كَمَا اتَّفَقَ ذَلِكَ لِابْنِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ صَاحِبُ الْأَلْفِيَّةِ النَّحْوِيَّةِ فَإِنَّهُ حَفِظَ فِي يَوْمِ مَوْتِهِ خَمْسَةَ شَوَاهِدَ.

لا تزالُ للإنسان قدرةٌ علىٰ الحفظ حتَّىٰ يموتُ، ولا تزولُ هٰذه القُدرة إلَّا بـزوالِ عقلـه؛ ولكـنَّ القُـوَىٰ تختلفُ فإنَّ الإنسانَ قد يُحصِّلُ في قوَّة حفظه ما لا يحصِّلُه غيرُه بحسب ما يَمُنُّ الله به عليه، ويهيِّئُ له من الأسباب، ومن أدامَ إعادةَ محفوظه وتكراره فإنَّه سيبقىٰ قادرًا علىٰ الحفظ ما لم يتغيَّر عقلُه.

ومن أخبارِ أهل العلم في هٰذا أنَّ ابن هشامٍ النَّحويَّ المعروف صاحب «أوضح المسالك» و«مغني اللَّبيب» تحوَّل في آخرِ عمْرِه إلىٰ مذهب الحنابلة، وكان شافعيًّا، فحفظ «مختصر الخرقي» تامًّا في مدَّةٍ يسيرةٍ[1] مع كبر سنِّه ووهن عظمه؛ لكنه كان رائضًا لنفسه علىٰ الحفظ مُلازمًا له فأمكنه ذلك مع تقدُّم سنِّه.

واتَّفق لأبي الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ أنَّه قرأ القراءات وحفظها وهو ابنُ ثمانين سنة، ومعلومٌ مشقَّةَ تحفُّظ أحرف القراءات واختلاف أهلِها؛ لٰكِنَّ من راض عقلَه وعوَّده الحفظ ارتاضَه ولزمَه، ومن انصرف عنهُ وانقطع بعد بدئه منه فإنَّه يَضعُف عن ذلك، ورياضةُ القلب في هٰذا كرياضة البدنِ عند إرادةِ تنمية عضلاته فإنَّ مُريد تقوية عضلات بدنه يأخذُ بدنه شيئًا فشيئًا بأنواع الأحمال والأثقال وأصناف الرِّياضات حتىٰ تشتدَّ تلك العضلاتُ فتبرُزُ للعيان في بدنه، وكذلِكُم الحفظ إذا أخذ الإنسان فيه شيئًا فشيئًا لا يزالُ قلبه يقوىٰ عليه حتىٰ يتمكَّنَ في منتهىٰ أمره في الحفظ من شيءٍ لم يكن يستطيعه في أوَّله، وطُلَّاب العلم يغفلون عن رعايةِ هٰذا الأصل فيُريد أحدهم أن يحفظ في ابتداءِ أمره القدر الذي يحفظه غيره من الشُّدَاةِ السَّابقين له فإذا لم يمكنه ذلك تكدَّرَ خاطره وضعُفت همته، وربَّما انصرف عن الحفظ، وهٰذا من الجهل بأخذ العلم، والمناسبُ لحال الشَّادي للعلم في ابتدائه أن يأخذَ نفسه للحفظ القليل شيئًا فشيئًا حتىٰ إذا تمادىٰ به الزَّمنُ في التَّحفُّظ فليستكثر بحسَب قدرته.

فإذا ابتدأ مثلًا بحفظ سطرٍ أو سطرين فليمكث علىٰ ذلك مدَّةً حتىٰ يقوىٰ قلبُه ويكون قادرًا علىٰ حفظها، ثم يزيدُ بعد ذلك شيئًا، ويبقىٰ عليه مدَّةً، ثم يزيدُ بعد ذلك شيئًا، ويبقىٰ عليه مدَّةً حتىٰ يتمكَّن من

(١) ((خمسة أشهر)).

الحفظ، ولا ينبغي أن يغتمّ ويهتمَّ لعجزه في المبادي عن عدم بلوغ مُراده من الحفظ، فإنَّ الأمرَ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «منهاج السُّنّة النَّبويَّة»: (والعبرةُ بكمال النِّهاية لا بنقص البداية) انتهىٰ كلامه، فإنَّ مبادئ الأمور تكون ضعيفةً كخلقك يا ابن آدم؛ فقد بدأتَ جنينًا، ثم صرتَ رضيعًا، ثم ارتفعت غلامًا، ثم قوَيت شابًّا، ثم صِرتَ كهلًا، وبلغت أشُدَّك، ولم تكن قوَّتُك عند بلوغ الأشد كقوّتك التي كنت عليها صغيرًا، وكذلِكُم العلم في حفظه وفهمه، فارعَ هٰذا في أخذك والتماسك له، ومن رعىٰ هٰذا في أخذه أصاب مقصوده، وأمَّا من يضربُ خبط عشواء ولا يفرِّقُ بين حالٍ وحالٍ، ويريد أن يكون في ابتدائه كحال المنتهين فهٰذا مُضرٌّ به.

وكذلكم من تعاطىٰ في الحفظ أو الفهم شيئًا ليس له فإنَّه يُضِرُّ به، كما ولعَ به النَّاس بأخرة من العناية بحفظ الأسانيد مع المتون في ابتداء أمرهم، ولو كان هٰذا الأمرُ مُرادًا عند أهل العلم لمَا جرَّدوا المختصرات في حفظ السُّنَّة كـ: «الأربعين النَّووية» و«عمدة الأحكام» و«بلوغ المرام» و«رياض الصَّالحين»؛ لكنهم لما عرفوا أنَّ هٰذا أمرٌ لا يستطاع في المبادي، وأنَّ من قدر عليه في أوَّل أمره فإنَّه يضرُّ به عزفوا عنه ورفعوه من هٰذه المختصرات، وجعلوها مخصوصةً بحفظ متون الأحاديث المرويَّة عن النَّبيِّ ﷺ.

وكذلك كانوا يأخذونَ في حفظ العلم شيئًا فشيئًا، ويأخذون في فهمه شيئًا فشيئًا، فلا يرتقون إلىٰ مطالعة المطوَّلات وحضورها علىٰ الأشياخ، وهم بعدُ لم يثبِّتوا أصولَهم ويدركوا مقاصد العلم المذكورة في المتون.

ومن ظنَّ أنَّه يحفَظُ أو يفهمُ في أوَّل أمره شيئًا عظيمًا فيأخذُ نفسه به، فإنَّه سيعودُ علىٰ نفسه بالفشل والإفساد، بخلاف من أخذها شيئًا فشيئًا، وإن قدِرَت علىٰ ما هو فوقه، فإنَّ النَّفسَ غرَّارة وهي تُمهِل صحابها رجاءَ أن يقع في حبالةٍ من حبالاتها تصدّه عن مقصوده من العلم، فينبغي أن تعقل أنَّ أخذك للعلم ينبغي أن يكون رويدًا رويدًا.

ومن العجيب أنَّ النَّاس يَنشؤون في دراستهم النِّظامية فيدخلون الابتدائية ولا يتقدَّم أحدٌ إلىٰ المرحلة المتوسِّطة وهو لم يدرس الابتدائية، فإذا فرغ من الابتدائية انتقل إلىٰ المتوسِّطة، وإذا فَرغ منها انتقل إلىٰ الثَّانوية، حتىٰ يُدرك العلم، وإذا درس الحساب فإنَّه يدرسُ الجمع قبل أن يدرس الطَّرحَ أو يدرس الضَّربَ أو يدرس القسمةَ؛ لأنَّه هو المناسبُ لمداركه، ومع رعاية هذا الأمر رعاية واضحة بيِّنة لا يتلجج في فهمها أحدٌ في علومهم النِّظامية؛ لٰكِنَّ كثيرٌ من طلاب العلم يضيِّعون هٰذا الأصل في طلبهم العلوم التي تقرِّبهم إلىٰ الله ﷻ، ويريد أحدُهم أن يحفظَ «بلوغ المرام» وهو لم يحفظ «الأربعين النَّووية»،

ويحضرُ أحدهم «صحيح البخاري»، وهو لم يقرأ بعدُ علىٰ شيخٍ «الأربعين النَّووية»، فأين هٰذا من العلم، وإنَّما حصل النَّقصُ عند النَّاس في العلم بأخرة لتضييعهم مثل هٰذه الأصول حتىٰ صار الدَّاعي إليها والحاثَّ عليها مستغرَبًا، وكأنَّ النَّاس أُعجبوا بما فُتِح عليهم من آلات الطِّباعة التي تقذف كل يوم بكتابٍ جديد وشرحٍ جديد، فجمعوا هٰذه الكتب في أدراج خزائن كتبهم وظنُّوا أنَّ العلم يُؤخذُ بالكمِّ، والعلم لا يؤخذ إلَّا بالكيف، وأمَّا الكمُّ الكثير فاعلم أنَّك مهما استكثرت منه قراءةً أو حضورًا أو حفظا دون البناءِ علىٰ أصل وثيق، فإنَّك لا تواصل مسيرك، وابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: (من استطال الطَّريق ضَعُف مشيه)، فالذي ينظر إلىٰ هٰذه الكُتب المنتهية، ويرىٰ أنَّ تسريعَ الوُصولِ إليها يكون بالهجوم عليها قراءةً وفهمًا وحفظًا وأنَّه يكون بذلك من أهل العلم، فإنَّه لا يُدرك ذلك أبدًا، و إنَّما تُدرِك العلمَ إذا سِرت بسير أهله أخذًا لصغار العلم حفظًا واستشراحًا حتىٰ ترتفعَ إلىٰ ما بعدها، ثم ترتفِعُ بعد ذلك إلىٰ ما بعدها...حتَّىٰ تصل إلىٰ الكتب المنتهية وإضاعتُك وقتك فيما سواها هو تضييعٌ لقوَّتك فإيَّاك أن تضيِّع قوَّتك ووقتك فيما نفعهُ قليلٌ وضرره وبيل، بل اشتغل بما نفعه كثير لك، وحالُ هٰذا كحالنا في ألبستنا، فإنَّ المرءَ يلبسُ وهو ابن عشرين مَا لم يكن لابسًا له وهو ابن عشر سنين، وكذلك العلم لا تدخل في شيءٍ لم تصل إليه بعدُ، واعلم أنَّ أسرع طريقٍ إلىٰ العلم هو الجادَّةُ المسلوكة عند أهله، وما عدا ذلك فمهما نُمِّق لك أو حُسِّن أو حُملت عليه فإنَّك لا تنتفع به أبدًا.

وَبِالْـمُذَاكَرَةِ تَدُومُ حَيَاةُ الْعِلْمِ فِي النَّفْسِ وَيَقْوَىٰ تَعَلُّقُهُ بِهَا، وَالْـمُرَادُ بِالْـمُذَاكَرَةِ مُدَارَسَةُ الْأَقْرَانِ.

وَقَدْ أُمِرْنَا بِتَعَاهُدِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ أَيْسَرُ الْعُلُومِ.

قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُف، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْـمُعَقَّلَةِ إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ». وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ بِهِ نَحْوَهُ.

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «التَّمْهِيدِ» عِنْدَ هٰذَا الْحَدِيثِ: وَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ الْـمُيَسَّرُ لِلذِّكْرِ كَالْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ مَنْ تَعَاهَدَهَا أَمْسَكَهَا فَكَيْفَ بِسَائِرِ الْعُلُومِ.

وَكَانَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: إِنَّمَا يُذْهِبُ الْعِلْمَ النِّسْيَانُ وَتَرْكُ الْـمُذَاكَرَةِ.

وَبِالسُّؤَالِ عَنِ الْعِلْمِ تُفْتَتَحُ خَزَائِنُهُ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّمَا هٰذَا الْعِلْمُ خَزَائِنَ وَتَفْتَتِحُهَا الْـمَسْأَلَةُ.

وَحُسْنُ الْـمَسْأَلَةِ نِصْفُ الْعِلْمِ وَالسُّؤَالَاتُ الْـمُصَنَّفَةِ كَمَسَائِلِ أَحْمَدَ الْـمَرْوِيَّةِ عَنْهُ بُرْهَانٌ جَلِيٌّ عَلَىٰ عَظِيمِ مَنْفَعَةِ السُّؤَالِ.

وَقِلَّةُ الْإِقْبَالِ عَلَى الْعَالَمِ بِالسُّؤَالِ إِذَا وَرَدَ عَلَىٰ بَلَدٍ تَكْشِفُ مَبْلَغَ الْعِلْمِ فِيهِ فَهٰذَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَقْدُمُ عَسْقَلَانَ فَيَمْكُثُ ثَلَاثًا لَا يَسْأَلُهُ إِنْسَانٌ عَنْ شَيْءٍ فَيَقُول لِرُوَّادِ بْن الْجَرَّاح أَحَدُ أَصْحَابِه: اكْتَرِ لِي! أَخْرُجُ مِنْ هٰذَا الْبَلَدِ، هٰذَا بَلَدٌ يَمُوتُ فِيهِ الْعِلْمُ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (هٰذَا بَلَد يَمُوت فِيه الْعِلْم) لأنَّه لا أحدَ يسألُ عنه، فإذا بُلِي الإنسان بمثله كان موتًا لعلمه، فاختارَ سفيانُ رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ أن يخرُجَ من هٰذا البلدِ لئلَّا يموتُ فيه علمُه، وإذا كان هٰذا في حقِّ العالم الذي معهُ طعامُه وشرابُه من العلم، فإنَّه في حَقِّ المتعلِّم أولىٰ، فالبلدُ الذي لا ينعُشُ فيه العلم ولا يظهر ولا يجِده فيه متلمِّسُه ممَّا ينبغي أن يهجرَه ملتمِسُ العلم إلىٰ غيره، رجاءَ أنْ يُصيب العلمَ الذي يؤمِّله، ولأجل هٰذا شُهِرت عند أهل العلم الرُّحلة فيه بالتَّنقُّل من بلدٍ إلىٰ بلدٍ لإصابة العلوم وإدراكها.

((وشبيه لهٰذه الحكاية ما حدثني به سليمان السُّكَّيت رئيس قضاة حائل رَحِمَهُ اللهُ عن شيخه محمد الأمين بن محمود الشنقيطي صاحب الزبير والمدرس المشهور فيها في مدرسة النَّجاة أنه لما خرج من المدينة قاصدًا الزُّبير فانتهىٰ به سفره في الديار النجدية إلىٰ عنيزة فلقيه علماؤها وكان له ببعضهم صحبة فصاروا يسألونه عن البلدان النَّجدية التي دخلها كيف العلم فيها، فلم يزل يسألونه عن كلِّ بلد فيخبرهم

بما رأىٰ حتىٰ انتهوا إلىٰ بلد من البلدان، فلما سألوه عنه، قال: أما هٰذا البلد فأهله علماء، فاستغربوا منه وقالوا: إنا لا نعرف فيه كبير أحد مشار إليه بالعلم، فكيف يكون أهله قاطبة علماء؟! قال: ذلك أني أقمت فيه شهرا فلم يسألني أحد فيه مسألة فمع تزيِّيه بزي أهل العلم، فمثل هٰذا البلد إذا بقي فيه الإنسان مات علمه، وينبغي له أن يرتحل منه لينعش علمه ويُحفظ.

وإذا كان هٰذا مأمورا به في حق العالم المعلِّم فإنَّ المتلقِّي المتعلم بذلك أولىٰ وأجدر، فإذا كان طالب العلم لا يجد فيه بغيته ولا يستفيد منه علمًا فإنه يتحوَّل عنه إلىٰ بلد العلم.

ومن ضنائن الإفادات ما ذكره أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ من أنواع الهجرة المأمور بها الهجرة من بلد الجهل إلىٰ بلد العلم، فإذا كان الإنسانُ في بلد جهل لا يدرك فيه علمًا فإنه ينبغي له أن يهاجر إلىٰ بلد يلتمس فيه العلم، ولأجل هٰذا شُهرت الرحلة في العلم في إيصالها إلىٰ المقصود المذكور.))

فَمَنْ لَقِيَ شَيْخًا فَلْيَغْتَنِمْ لِقَاءَهُ بِالسُّؤَالِ عَمَّا يُشْكِلُ عَلَيْهِ وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ لَا سُؤَالَ مُتَعَنِّتٍ مُمْتَحِنٍ.

وَهَذِهِ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةُ لِلْعِلْمِ بِمَنْزِلَةِ الْغَرْسِ لِلشَّجَرِ وَسَقْيِهِ وَتَنْمِيَتِهِ بِمَا يَحْفَظُ قُوَّتَهُ وَيَدْفَعُ آفَتَهُ فَالْحِفْظُ غَرْسُ الْعِلْمِ وَالْمُذَاكَرَةُ سَقْيُهُ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ تَنْمِيَتُهُ.

الْـمَعْقِدُ الرَّابِعُ عَشَرَ
إِكْرَامُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَتَوْقِيرِهِمْ

إِنَّ فَضلَ الْعُلَمَاءِ عَظِيمٌ، وَمَنْصِبُهُمْ مَنْصِبٌ جَلِيلٌ؛ لِأَنَّهُمْ آبَاءُ الرُّوحِ، فَالشَّيْخُ أَبٌ لِلرُّوحِ كَمَا أَنَّ الْوَالِدَ أَبٌ لِلْجَسَدِ، وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْـمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَـهُمْ) وَالْأُبُوَّةُ الْـمَذْكُورَةُ فِي هٰذِهِ الْقِرَاءَةِ لَيْسَتْ أُبُوَّةُ النَّسَبِ إِجْمَاعًا وَإِنَّمَا هِي الْأُبُوَّةُ الدِّينِيَّةُ الرُّوحِيَّةُ، فَالاعْتِرَافُ بِفَضْلِ الْـمُعَلِّمِينَ حَقٌّ وَاجِبٌ.

قَالَ شُعْبَةُ بْنُ الْـحَجَّاجِ: كُلُّ مَنْ سَمِعْتُ مِنْهُ حَدِيثًا فَأَنَا لَهُ عَبْدٌ.

وَاسْتَنْبَطَ هٰذَا الْـمَعْنَى مِنَ الْقُرْآنِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأُدْفُوِيُّ فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: إِذَا تَعَلَّمَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْعَالِمِ وَاسْتَفَادَ مِنْهُ فَوَائِدَ فَهُوَ لَهُ عَبْدٌ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ ﴾ [الْكَهْفُ:٦٠]، وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وَلَمْ يَكُنْ مَمْلُوكًا لَهُ، وَإِنَّمَا كَانَ مُتَلْمِذًا لَهُ، مُتَّبِعًا لَهُ، فَجَعَلَهُ اللهُ فَتَاهُ لِذَلِكَ.

وَقَدْ أَمَرَ الشَّرْعُ بِرِعَايَةِ حَقِّ الْعُلَمَاءِ إِكْرَامًا لَـهُمْ وَتَوْقِيرًا وَإِعْزَازًا.

قَالَ أَحْمَدُ فِي الْـمُسْنَدِ حَدَّثَنَا هَارُونُ قَالَ حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكُ بْنُ الْـخَيْرِ الزِّيَادِيُّ، عَنْ أَبِي قَبِيلٍ الْـمَعَافِرِيِّ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَـمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَلَمْ يَعْرِفْ لِعَالِـمِنَا حَقَّهُ».

أَمْسَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَوْمًا بِرِكَابِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ زَيْدٌ: أَتُمْسِكُ لِي وَأَنْتَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّا هٰكَذَا نَصْنَعُ بِالْعُلَمَاءِ.

((نقل ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» عن شيخه أبي العباس ابن تيمية الحفيد أنه قال: الشَّيخ والمعلِّم والمؤدِّب أبٌ للروح، والوالد أبٌ للجسد.

من الأشياء التي ينبغي أن يجعلها الإنسان ثابتة في نياط قلبه أن التاريخ الإسلامي حضارة عظيمة فيها التربية والتعليم والإدارة والإقتصاد والسياسة؛ ولٰكن نقلة تلك الحضارة نقلوها بأحوالهم وأفعالهم ولم ينقلوها بأقوالهم، فلم يكتبوا في الإدارة ولم يكتبوا في السياسة ولم يكتبوا في الإقتصاد؛ لأنها ليست مطالب أصلية وإنما هي مطالب تابعة عند أهل الإسلام؛ لٰكِن يوجد في كلامهم ما يدلُّ على تلك المدارك.

فمثلا هٰذه الجملة فيها بيان أحوال المرء في التربية والترقِّي في أخذه فإنَّ الإنسان يبتدئ أولا عند مؤدب

يؤدبه، يعني يعلمه مهمات الأخلاق والآداب وهٰذا يكون في المبادئ، ثم ينتقل إلىٰ معلم يعلمه الكتابة والحساب والقرآن، وهٰذا كان مشهورا عند السلف في عهد الصحابة ومن بعدهم باسم المكتب، وهو الموجود اليوم باسم الحلق.

ثم بعد ذلك يكون دور الشيخ وهو الذي يعلِّم مسائل الدين والعلم وما يتبعها من مسائل العلوم التابعة لها كاللغة وغيرها.

فهٰذا ترتيب للتلقي أنَّ الإنسان يبتدئ عند مؤدب ثم عند معلم ثم عند شيخ، وكل واحد له وظيفته التي يقوم بها وللإنسان معه عمر تُناسبه فالتأديب يكون في سن الصغر منذ الثالثة والرابعة والخامسة، ثم بعد ذلك يدفع إلىٰ المعلم فيخرج من المعلم في سن التاسعة والعاشرة والحادية عشر ، ثم يصحب شيخا في العلم.))

قوله: (أَمْسَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَوْمًا بِرِكَابِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) الرِّكابُ اسمٌ للإبل التي تحمِل القوم، وأرادَ بذلك زمام النَّاقة التي هو عليها.

وَنَقَل ابْنُ حَزْمٍ الْإِجْمَاعَ عَلَىٰ تَوْقِيرِ الْعُلَمَاءِ وَإِكْرَامِهِمْ.

وَالْبَصِيرُ بِالْأَحْوَالِ السَّلَفِيَّةِ يَقِفُ عَلَىٰ حَمِيدِ أَحْوَالِهِمْ فِي تَوْقِيرِ عُلَمَائِهِمْ فَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا جَلَسُوا إِلَيْهِ كَأَنَّمَا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ لَا يَتَحَرَّكُونَ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: رَأَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَىٰ وَأَصْحَابَهُ يُعَظِّمُونَهُ وَيُسَوِّدُونَهُ وَيُشَرِّفُونَهُ مِثْلَ الْأَمِيرِ.

وَقَالَ يَحْيَىٰ الْـمَوْصِلِيُّ: رَأَيْتُ مَالِكَ بْنِ أَنَسٍ غَيْرَ مَرَّةٍ وَكَانَ بِأَصْحَابِهِ مِنَ الْإِعْظَامِ لَهُ وَالتَّوْقِيرِ لَـهُ، وَإِذَا رَفَعَ أَحَدٌ صَوْتَهُ صَاحُوا بِهِ.

فَمِنَ الْأَدَبِ اللَّازِمِ لِلشَّيْخِ عَلَىٰ الْـمُتَعَلِّمِ مِمَّا يَدْخُلُ تَحتَ هٰـذَا الْأَصْلِ التَّوَاضُعُ لَـهُ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْـهِ، وَعَدَمُ الِالْتِفَاتِ عَنْهُ، وَمُرَاعَاةُ أَدَبِ الْـحَدِيثِ مَعَهُ، وَإِذَا حَدَّثَ عَنْهُ عَظَّمَهُ مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ بَـلْ يُنْزِلُـهُ مَنْزِلَتَـهُ، لِئَلَّا يَشِينَهُ مِنْ حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يَمْدَحَهُ وَلْيَشْكُرْ تَعْلِيمَهُ وَيَدْعُ لَهُ وَلَا يُظْهِرِ الِاسْتِغْنَاءَ عَنْـهُ وَلَا يُـؤْذِهِ بِقَـوْلٍ أَوْ فِعْلٍ وَلْيَتَلَطَّفْ فِي تَنْبِيهِهِ عَلَىٰ خَطَئِهِ إِذَا وَقَعَتْ مِنْهُ زَلَّةٌ.

وَمِمَّا تُنَاسِبُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ هُنَا بِاخْتِصَارٍ وَجِيزٌ مَعْرِفَةُ الْوَاجِبِ إِزَاءَ زَلَّةِ الْعَالِـمِ وَهُوَ سِتَّةُ أُمُورٍ:

الْأَوَّلُ: التَّثَبُّتُ فِي صُدُورِ الزَّلَّةِ مِنْهُ.

الثَّانِي: التَّثَبُّتُ فِي كَوْنِهَا خَطَأً، وَهَذِهِ وَظِيفَةُ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ فَيُسْأَلُونَ عَنْهَا.

وَالثَّالِثُ: تَرْكُ اتِّبَاعِهِ فِيهَا.

وَالرَّابِعُ: الْتِمَاسُ الْعُذْرِ لَهُ بِتَأْوِيلٍ سَائِغٍ.

وَالْـخَامِسُ: بَذْلُ النُّصْحِ لَهُ بِلُطْفٍ وَسِرٍّ لَا عُنْفٍ وَلَا تَشْهِيرَ.

وَالسَّادِسُ: حِفْظُ جَنَابِهِ فَلَا تُهْدَرُ كَرَامَتُهُ فِي قُلُوبِ الْـمُسْلِمِينَ.

قوله: (حِفظُ جَنَابِهِ) الجَنابُ –بالفتح- كالجانب، والمرادُ قدره، فيحفظُ قدره ولا تُهدرُ كرامته.

وهٰذه النُّبذةُ في معرفة الواجب إزاءَ زلَّة العالم من عيون ما في هٰذه المقيَّدة ((من المعاني))، فإنَّ زلَّة العالِم ذهابُ العالَم، وهي ممَّا شاء ابتلاء الخلق به بأخرة لضعف قلوبهم وكثرةِ الأهواء فيهم وسريانها إلىٰ المتشرِّعة، فزادت الوقيعةُ فيها والبليَّةُ بها.

فينبغي لمريدِ السَّلامة أن يُعملَ هٰذه الأمورَ السِّتّةَ فيها، فليتثبَّت أوَّلًا من الزَّلَّة إذا صدرت أنَّها صحيحةٌ فيمن نُسبت إليه.

ثمَّ يتثبَّت بعدُ في كونها خطأً، وهٰذا شيءٌ لا يميِّزه كلُّ أحد؛ بل إنَّما يميِّزه العلماء الرَّاسخين، فوظيفةُ بيان كونِ أمرٍ ما هو زلَّةٌ من الزَّلَّات مُناطٌ بالعلماء الرَّاسخين، كما ذكرهُ الشَّاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في

«الموافقات» وابن رجبٍ في «جامع العلوم والحكم» فلا يحكمُ أحدٌ علىٰ أحدٍ من العلماء أنَّه زلَّ إلَّا عالمٌ مثلُه، أمَّا المتعلِّمون فإذا عرضَ لهم شيءٌ من ذلك فيرفعون ما أشكلَ عليهم إلىٰ العلماء، أمَّا تصدُّرُ المتعلِّم لرصد الزَّلَّات ومناقشة الإشكالات فمن بلايا العصر وفَواقِره.

ثمَّ إذا حُكِمَ بعدها بأنَّها خطأٌ لقول عالم متمكِّنٍ أنَّ ما صدر عن فلانٍ خطأٌ من الأخطاء فإنَّه يُترك اتّباعه فيه ويُلتمس له عذرٌ بتأويلٍ سائغٍ، والتَّأويلُ السَّائغ إنَّما يكون حقًّا لمن ثبت له الاجتهادُ ممّن وُجدت فيه آلته واجتمعت له عدَّته.

أمَّا من قصَّر عن هٰذه الرُّتبة فإنَّه لا يُقال: لعلَّ له تأويلًا سائغًا، بل هو مريدٌ للخير قدْ أخطأ فيه.

ومن الشَّائعِ عند النَّاس عند الحُكم علىٰ خطأ ما أن يقال: لعلَّه اجتهد، وليس الاجتهادُ حقًّا لكلِّ أحدٍ؛ بل هو مخصوصٌ بأهله، فلا يصحُّ إطلاقُ هٰذه العبارة في حقِّ كلِّ متكلِّم؛ بل تكون حصرًا علىٰ من يصحُّ فيه الاجتهاد، فإذا أخطأ متأهِّلٌ له قيل: لعلَّهُ اجتهد.

أمَّا غيرُه فلا يقال فيه ذلك، وإنَّما يقال: لعلَّه أراد خيرًا فأخطأ فيه، كما قال ابن مسعود فيما رواه الدَّارمي بسندٍ صحيحٍ عنه، أنَّه قال: (كم من مريد للخير لن يصيبه). فمن وقعَ في خطأ وكان مجتهدًا قيل: لعلَّه اجتهد فأخطأ.

وأمَّا من لم يكن أهلًا للاجتهاد فلا يَصِحُّ أن يقال فيه: لعلَّه اجتهد فأخطأ، وإنَّما يقال: لعلَّه أرادَ خيرًا فأخطأَهُ.

ثُمَّ إذا حُقِّق أنَّه قدْ أخطأَ بتأويلٍ سائغ كما تقدَّم والتُمس له عذرٌ فإنَّه تُبذلُ له النَّصيحة بلطفٍ ويسر، لا عنتٍ وتشهير، فبذلُ النُّصح واجبٌ، وطردُ العُنف في جميع أحواله ليسَ من هدي أهل السُّنّة والجماعة؛ بل أهل السُّنة يُعمِلُون في كلِّ محلٍّ ما يناسبه:

فإنَّ النُّصحَ تارةً يناسبهُ اللُّطف واليُسر، فيكونُ الواجب إمضاؤه به.

ويكون تارةً المناسب له العنفُ والتَّشهير فيمضىٰ هٰذا معه.

ومن بدائع أبي العبَّاس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ قوله: (أهل السُّنَّةِ يعلَمون الحقَّ ويرحمون الخلق) انتهىٰ كلامه.

ومن رحمتهم للخلق إعمال هٰذه الأصول السِّتَّة التي ذُكرت إزاء زلَّة العالم.

وَمِمَّا يُحْذَرُ مِنْهُ مِمَّا يَتَّصِلُ بِتَوْقِيرِ الْعُلَمَاءِ مَا صُورَتُهُ التَّوْقِيرُ وَمَآلُهُ الْإِهَانَةُ وَالتَّحْقِيرُ كَالازْدِحَامِ عَلَى الْعَالِمِ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ، وَإِلْجَائِهِ إِلَى أَعْسَرِ السُّبُلِ، فَمَا مَاتَ هُشَيمُ بْنُ بَشِيرٍ الْوَاسِطِيُّ الْمُحَدِّثُ الثِّقَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَّا بِهَذَا، فَقَدِ ازدَحَمَ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ عَلَيْهِ فَطَرَحُوهُ عَنْ حِمَارِهِ فَكَانَ سَبَبَ مَوْتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

الْمَعْقِدُ الْخَامِسُ عَشَرَ
رَدُّ مُشْكِلِهِ إِلَى أَهْلِهِ

فَالْمُعَظِّمُ لِلْعِلْمِ يُعَوِّلُ عَلَىٰ دَهَاقِنَتِهِ وَالْجَهَابِذَةِ مِنْ أَهْلِهِ لِحَلِّ مُشْكِلَاتِهِ.

وَلَا يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِمَا لَا تُطِيقُ، خَوْفًا مِنَ الْقَوْلِ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ، وَالْافْتِرَاءِ عَلَىٰ الدِّينِ، فَهُو يَخَافُ سَخْطَةَ الرَّحْمنِ قَبْلَ أَنْ يَخَافَ سَوْطَ السُّلْطَانِ فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ بِعِلْمٍ تَكَلَّمُوا وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ سَكَتُوا فَإِنْ تَكَلَّمُوا فِي مُشْكِلٍ فَتَكَلَّمْ بِكَلَامِهِمْ وَإِنْ سَكَتُوا عَنْهُ فَلْيَسَعْكَ مَا وَسِعَهُمْ.

قوله: (يُعَوِّلُ عَلَىٰ دَهَاقِنَتِهِ وَالْجَهَابِذَةِ مِنْ أَهْلِهِ لِحَلِّ مُشْكِلَاتِهِ) الدَّهاقنة جمع دُِهقان -بالكسر، وتُضمُّ أيضًا، وذُكر الفتح ثالثًا لهما- وهو أعجميٌّ عُرِّب، ومعناه: قويُّ التَّصرُّف في حِدَّة.

و(الجِهابِذة) جمع جِهبِذ -بكسر أوَّله وثالثه لا جهبَذ- وهو النَّقَّاد الخبير لغوامض الأمور، وهٰذه الكلمة كسابقتها أعجميَّةُ الأصل لكنَّها عُرِّبت فاشتهرت .

((ويُعلم من هٰذه الجملة أن من سلامة دين العبد الاكتفاء بمن تبرأَ به ذمَّته من أهل العلم القائمين عليه لأنهم إنْ تكلَّموا تكلَّموا بعلم، وإنْ سكتوا سكتوا بعلم، فالمقتدِي بهم غالبُ السَّلامة في دينه يسعه ما وسِعهم، والحامل علىٰ العبد في طلب السلامة هو خوفُه علىٰ دينه، فإذا هيَّأ الله من الخلق من يكون حافظًا للدين ممن أُنيطت به ولاية الإفتاء، فإنَّ العاقل يكل الأمر إليه ولا يستشرف عليه حفظا لدينه، فإنَّ المرء تكلم بكلمة يهوي بها في النار سبعين خريفًا ولما وعىٰ هٰذا السَّلف الأولون رحمهم الله كانوا يستغنون من بمن أُنيط به أمر الإفتاء فيكلون الأمر إليه لا خوفًا من سخطة السُّلطان إنَّما خوفا من سخطة الرَّحمٰن، وإنما يطلب العلم قربة وابتغاء رضاء الله عز وجل والخوف من سخطه، ومن مسالك ذلك ملاحظة هٰذا الأمر العظيم في ردِّ المشكلات إلىٰ أهل العلم العارفين به القائمين علىٰ حفظه.))

وَمِنْ أَدَقِّ الْمُشْكِلَاتِ الْفِتَنُ الْوَاقِعَةُ وَالنَّوَازِلُ الْحَادِثَةُ الَّتِي تَتَكَاثَرُ مَعَ امْتِدَادِ الزَّمَنِ، وَالنَّاسِ فِي هَٰذَا الْبَابِ طَرَفَانِ وَوَسَطٌ فَقَوْمٌ أَعْرَضُوا عَنِ اسْتِفْتَاءِ الْعُلَمَاءِ فِيهَا وَفَزِعُوا إِلَىٰ الْأَهْوَاءِ وَالْآرَاءِ يَسْتَمِدُّونَهَا مِنْ هَيَجَانِ الْخُطَبَاءِ وَرِقَّةِ الشُّعَرَاءِ وَتَحْلِيلَاتِ السِّيَاسِيِّينَ وَإِرْجَافَاتِ الْمُنَافِقِينَ، وَقَوْمٌ يَعْرِضُونَهَا عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ لَكِنَّهُمْ لَا يَرْتَضُونَ قَالَهُمْ وَلَا يَرْضَوْنَ مَقَالَهُمْ، فَكَأَنَّهُمْ طَلَبُوا جَوَابًا يُوَافِقُ هَوًىٰ فِي نُفُوسِهِمْ فَلَمَّا لَمْ يَجِدُوهُ مَالُوا عَنْهُمْ.

وَالنَّاجُونَ مِنْ نَارِ الْفِتَنِ السَّالِمُونَ مِنْ وَهَجِ الْمِحَنِ هُمْ مَنْ فَزِعَ إِلَىٰ الْعُلَمَاءِ وَلَزِمَ قَوْلَهُم.

قوله: (السَّالِمُونَ مِنْ وَهَجِ الْمِحَنِ) الوَهَج بالتَّحريك هو حرُّ النَّار، فمعنىٰ الجملة: السَّالمون من حرِّ نار المحن.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

وَإِنِ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِمْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِهِمْ، فَطُرِحَ قَوْلُهُ وَأَخَذَ بِقَوْلِهِمْ، فَالتَّجْرِبَةُ وَالْخِبْرَةُ هُمْ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَإِذَا اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُهُمْ لَزِمَ قَوْلَ جُمْهُورِهِمْ وَسَوَادِهِمْ إِيثَارًا لِلسَّلَامَةِ فَالسَّلَامَةُ لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ.

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ ابْنِ عَاصِمٍ فِي «مُرْتَقَىٰ الْوُصُولِ»:

وَوَاجِبٌ فِي مُشْكِلَاتِ الْفَهْمِ تَحْسِينُنَا الظَّنَّ بِأَهْلِ الْعِلْمِ

وَمِنْ جُمْلَةِ الْمُشْكِلَاتِ رَدُّ زَلَّاتِ الْعُلَمَاءِ، وَالْمَقَالَاتِ الْبَاطِلَةِ لِأَهْلِ الْبِدَعِ وَالْمُخَالِفِينَ، فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ فِيهَا الْعُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ كَمَا بَيَّنَهُ الشَّاطِبِيُّ فِي «الْمُوَافَقَاتِ» وَابْنُ رَجَبٍ فِي «جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ» وَإِذَا تَعَرَّضَتْ النَّاشِئَةُ وَالدَّهْمَاءُ لِلدُّخُولِ فِي هٰذَا الْبَابِ تَوَلَّدَتْ فِتَنٌ وَبَلَايَا، كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ فِي عَصْرِنَا فَإِنَّمَا نَشَأَتْ كَثِيرٌ مِنَ الْفِتَنِ حِينَ تَعَرَّضَ لِلرَّدِّ عَلَىٰ زَلَّاتِ الْعُلَمَاءِ وَالْمَقَالَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلشَّرِيعَةِ بَعْضَ النَّاشِئَةِ الْأَغْمَارِ وَالْجَادَّةِ السَّالِمَةِ عَرْضُهَا عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ وَالِاسْتِمْسَاكُ بِقَوْلِهِمْ فِيهَا.

قوله: (بَعْضُ النَّاشِئَةِ الأَغمار) الأغمار جمع غُمْـرٌ -بسكون الميم وتُضمُّ أيضًا، فيقال: غمْـر وغمُـر- وهو اسمٌ لمن لم يجرِّب الأمور ((ولا اطلع علىٰ حقائقها، ومن بدائع الأشعار المشهورة في هٰذا المعنىٰ قول أبي حيان الأندلسي:

يظُنُّ الغُمْرُ أنَّ الكُتْبَ تهدي أخا فهمٍ لإدراك العلوم
وما يدري الجهولُ بأنَّ فيها غوامض حيَّرت عقْلَ الفهيم
إذا رُمْتَ العلومَ بغير شيخ ضللتَ الصِّراطَ المستقيم

إلىٰ آخر ما قال)).

الْمَعْقِدُ السَّادِسَ عَشَرَ
تَوْقِيرُ مَجَالِسِ الْعِلْمِ وَإِجْلَالِ أَوْعِيَتِهِ

فَمَجَالِسُ الْعُلَمَاءِ كَمَجَالِسِ الْأَنْبِيَاءِ.

قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ الله: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَجَالِسِ الْأَنْبِيَاءِ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ، يَجِيءُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ أَيُّ شَيْءٍ تَقُولُ فِي رَجُلٍ حَلَفَ عَلَىٰ امْرَأَتِهِ بِكَذَا وَكَذَا ؟ فَيَقُولُ: طَلَقَتْ امْرَأَتُهُ، وَيَجِيءُ آخَرُ فَيَقُولُ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ حَلَفَ عَلَىٰ امْرَأَتِهِ بِكَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ لَيْسَ يَحْنَثُ بِهَذَا الْقَوْلِ، وَلَيْسَ هٰذَا إِلَّا لِنَبِيٍّ أَوْ لِعَالِمٍ فَاعْرِفُوا لَهُمْ ذَلِكَ.

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ: إِنَّ مَجَالِسَ الْعُلَمَاءِ تُحْتَضَنُ بِالْخُشُوعِ وَالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ.

وَقَدْ كَانَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَ تَوَضَّأَ وَجَلَسَ عَلَىٰ صَدْرِ فِرَاشِهِ وَسَرَّحَ لِحْيَتَهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ جُلُوسِهِ بِوَقَارٍ وَهَيْبَةٍ ثُمَّ حَدَّثَ.

وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ لَا يُتَحَدَّثُ فِي مَجْلِسِهِ وَلَا يُبْرَىٰ فِيهِ قَلَمٌ وَلَا يَتَبَسَّمُ فِيهِ أَحَدٌ.

وَكَانَ وَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي مَجْلِسِهِ كَأَنَّهُمْ فِي صَلَاةٍ.

فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَعْرِفَ لِمَجَالِسِ الْعِلْمِ حَقَّهَا فَيَجْلِسُ فِيهَا جِلْسَةَ الْأَدَبِ وَيُصْغِي إِلَىٰ الشَّيْخِ نَاظِرًا إِلَيْهِ لَا يَلْتَفِتُ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ وَلَا يَضْطَرِبُ لَضَجَّةٍ يَسْمَعُهَا، وَلَا يَعْبَثُ بِيَدَيْهِ أَوْ رِجْلَيْهِ، وَلَا يَسْتَنِدُ بِحَضْرَةِ شَيْخِهِ، وَلَا يَتَكِئُ عَلَىٰ يَدِهِ، وَلَا يُكْثِرُ التَّنَحْنُحَ وَالْحَرَكَةَ، وَلَا يَتَكَلَّمُ مَعَ جَارِهِ، وَإِذَا عَطَسَ خَفَضَ صَوْتَهُ، وَإِذَا تَثَاءَبَ سَتَرَ فَمَهُ بَعْدَ رَدِّهِ جَهْدَهُ.

وهٰذه هي روضةُ العلم الموقَّرة ومقامته المُعظمة التي تحفُّها الملائكة وتغشاها الرَّحمة وتعلوها السَّكينة، والعلمُ صلاة القلب؛ كما قال ابن جماعة رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في «تذكرة السَّامع والمتكلِّم»، فإذا أحرمَ القلبُ بصلاته تعلُّمًا وتعليمًا وجلسَ ملتمِسه ومقتبِسه إلىٰ حَلقته لزمه أن يصرفَ نفسَه عن كلِّ ما يُشغلها ممَّا ذُكر، ولو كان الُمفضي إلىٰ هٰذا المهيع من جمع النَّفس والقلب علىٰ هٰذا المرادُ هو التَّقييدُ بالقيود؛ لكان ذلك صالحًا للعلم، وقد كان ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقيِّد مولاه عكرمة علىٰ تعليم القرآن والسُّنن والفرائض كما ذكرهُ البُخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في «صحيحه»، فانظر إلىٰ شريف فهمهم لما أدركوا أنَّ هٰذه المعالي لا تقعُ إلَّا بحبس النُّفوس عليها ولم تكن الُمكنةُ في حبس نفسٍ من تلك النُّفوس إلَّا بتقييدها، فلمَّا حُملت عليه شرُفت فإنَّ عكرمةَ البربري مولىٰ ابن عباس رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ صارَ له رفعةٌ في العلم بعد هٰذا

الحبس، وهٰذا حبسٌ نافعٌ لا سجنٌ قاطعٌ، والمحبوس من حبَسَه هواه وصُرف قلبه عمَّا ينفعه، والمسجونُ من سُجِن قلبه عن الأمورِ العظيمة، أو أخذَ فيها بطريقٍ لا تُفضي إليها، فلا تستكثرنَّ ما ذُكِرَ من حال الأدب في العلم، إذ هٰذا هو ميراث النَّبيِّ ﷺ وإذا كان أهلُ الدُّنيا يحفظون دراهمهم ودنانيرهُم ويتفنَّنون في صيانتها بأنواع الخزائن وأشكال الأقفال والمفاتيح التي يُحرزون بها حفظها فحريٌّ بالقائمين بالنِّيابة عن النَّبيِّ ﷺ في ميراثه أن يجتهدوا في هٰذا وأن يُعمل المتصبون لأنفسهم في هٰذا الأمر- وهو طلب العلم - أن يُعملوا هٰذا الأصل فيه تعظيمًا لمقام النَّبي ﷺ، فقبيحٌ بك أن تلاحظ عند مراجعتك لمصرفٍ ماليٍّ أدب أهله وأسلوب نظامه وتترفَّق بموظَّفيه رجاءَ أن تخرج بحاجتك منهم، فإذا جلست إلىٰ ميراثِ النَّبي ﷺ كانت بئست الجلسة فأنت ساهٍ لاهٍ لا تُقيمُ أدبًا ولا تحفظُ حقًّا، ولما كان السَّلف رحمهم الله تعالىٰ يدركون هٰذا المعنىٰ كانوا يحفظون أبصارهم وألسنتهم وحركاتهم في مجالس العلم فشرُفُوا وعظموا، ولما كثُر عند المتأخِّرين الأخذِ للعلم علىٰ غير هٰذا النَّاموس المبارك لم يبال الله ﷻ بهم فربَّما أمضوا أوقاتًا كثيرةً في حفظٍ أو فهم ثم يرجعون بخفيٍّ حنين؛ لأنهم يرعوا الأدب اللازم مع هٰذا الميراث، واللهُ ﷻ لا يضعُ ميراث النَّبي ﷺ إلَّا عِندَ متأدِّبٍ معه معظِّم له وتقدَّم قولُ يوسفَ بن الحسين بالأدب تفهم العلم، وهٰذا من الأمور التي ذُكرتُ لكم أنَّها من أحوال القلوب في أخذِ العلم التي يغفل عنها طُلَّابُ العلم فربَّما رأيتَ طالبًا يحضرُ في «صحيح البخاري» والمقروءُ هو أحاديث النَّبي ﷺ ثم تراهُ كثيرَ الالتفات أو الفرقعةِ لأصابعه أو الرَّدِّ علىٰ جوَّاله أو التَّشاغُلِ بهندامه، فأين هٰذا والإقبالُ علىٰ ميراث النَّبيِّ ﷺ.

وَيَنْظَمُّ إِلَىٰ تَوْقِيرِ مَجَالِسِ الْعِلْمِ إِجْلَالُهُ أَوْعِيَتِهِ الَّتِي يَحْفَظُ فِيهَا وَعِمَادُهَا الْكُتُبُ، فَاللَّائِقُ بِطَالِبِ الْعِلْمِ: صَوْنُ كِتَابِهِ، وَحِفْظُهِ وَإِجْلَالُهِ، وَالاعْتِنَاءُ بِهِ، فَلَا يَجْعَلُهُ صُنْدُوقًا يَحْشُوهُ بِوَدَائِعِهِ وَلَا يَجْعَلُهُ بُوقًا، وَإِذَا وَضَعَهُ وَضَعَهُ بِلُطْفٍ وَعِنَايَةٍ.

رَمَىٰ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْه يَوْمًا بِكِتَابٍ فِي يَدِهِ فَرَآهُ أَبُو عَبْدِ الله أَحْمَدَ بْنُ حَنْبَلٍ فَغَضِبَ وَقَالَ: أَهَكَذَا يُفْعَلُ بِكَلَامِ الْأَبْرَارِ.

وَلَا يَتَّكِئُ عَلَىٰ الكِتَابِ أَوْ يَضَعُهُ عِنْدَ قَدَمَيْهِ وَإِذَا كَانَ يَقْرَأُ فِيهِ عَلَىٰ شَيْخٍ رَفَعَهُ عَنِ الْأَرْضِ وَحَمَلَهُ بِيَدَيْهِ.

الْمَعْقِدُ السَّابِع عَشَرَ
الذَّبُّ عَنِ الْعِلْمِ وَالذَّوْدُ عَنْ حِيَاضِهِ

فَإِنَّ لِلْعِلْمِ حُرْمَةٌ وَافِرَةٌ تُوجِبُ الانْتِصَارَ لَهُ إِذَا تُعُرِّضَ لِجَنَابِهِ بِمَا لَا يَصْلُحُ.

وَقَدْ ظَهَرَ هٰذَا الانْتِصَارُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي مَظَاهِرَ مِنْهَا:

الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُخَالِفِ، فَمَنِ اسْتبَانَتْ مُخَالَفته لِلشَّرِيعَةِ رُدَّ عَلَيْهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ حَمِيَّةً لِلدِّينِ وَنَصِيحَةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَزَلِ النَّاسُ يَرُدُّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَمَا قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدَ، لَكِنَّ الْمُرَشَّحَ لِذَلِكَ هُمُ الْعُلَمَاءُ لَا الدَّهْمَاءُ مَعَ لُزُومِ الْأَدَبِ وَتَرْكِ الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ.

قوله: (لَكِنَّ الْمُرَشَّحَ لِذَلِك هُم الْعُلَمَاء لَا الدَّهْمَاء) الدَّهماءُ هُم العامَّة، قال الُمبرِّد رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ: (يُقال للعامَّة الدَّهماء يُراد أنَّهم قد غطَّوا الأرض) انتهىٰ كلامه، لأنَّ أصل الدَّهم هو التَّغطية، ولما كان أكثر أهل الأرض الذين يُغطُّون وجهها هم العامَّة سُمُّوا بالدَّهماء.

وَمِنْهَا: هَجْرُ الْـمُبْتَدِعِ الْـمُجْمِعِ عَلَيْهِ، كَمَا ذَكَرَهُ أَبُو يَعْلَىٰ الْفَرَّاء فَلَا يُؤْخَذُ الْعِلْمُ عَنْ أَهْلِ الْبِدَعِ لَكِنْ إِذَا اضْطُرَّ إِلَيْه فَلَا بَأْسَ كَمَا فِي الرِّوَايَةِ عَنْهُمْ لَدَىٰ الْـمُحَدِّثِينَ.

وَفِي ذَلِك يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْـحَفِيدُ -مُقَرِّرًا أَصْلًا كَبِيرًا تَعْظُمُ الْـحَاجَةُ إِلَيْهِ فِي أَزْمِنَةِ الْـجَاهِلِيَّةِ وَالْفِتَنِ- : فَإِذَا تَعَذَّرَ إِقَامَةُ الْوَاجِبَاتِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَّا بِمَنْ فِيهِ بِدْعَةٌ مَضَرَّتَهَا دُونَ مَضَرَّةِ ذَلِكَ الْوَاجِبِ كَانَ تَحْصِيلُ مَصْلَحَةِ الْوَاجِبُ مَعَ مَفْسَدَةٍ مَرْجُوحَةٍ خَيْرًا مِنَ الْعَكْسِ.

وَمِنْهَا زَجْرُ الْمُتَعَلِّمِ إِذَا تَعَدَّىٰ فِي بَحْثِهِ أَوْ ظَهَرَ مِنْهُ لَدَدٌ أَوْ سُوءُ أَدَبٍ.

قوله: (أَو ظَهَر مِنه لَدَدٌ) اللَّدَدُ هو الخصومةُ الشَّديدة.

كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْن مَهْدِي إِنْ تَحَدَّثَ أَحَدٌ فِي مَجْلِسِهِ أَوْ بُرِيَ قَلَمٌ صَاحَ وَلَبِسَ نَعْلَيْهِ وَدَخَلَ.

وَكَانَ وَكِيعٌ إِذَا أَنْكَر مِن أَمْر جُلَسَائِه شَيْئًا انْتَعَلَ وَدَخَل.

وَشُهِدَ هٰذَا مِرَارًا مِنْ شَيْخِ شُيُوخِنَا مُحَمَّدِ بْن إِبْرَاهِيمَ آلَ الشَّيْخِ فَكَمْ مَرَّةً رُئِيَ مُنْصَرِفًا لَمَّا سَمِعَ طَالِبًا يَتَشَدَّقُ فِي مَقَالِهِ فَأَخَذَ نَعْلَيْهِ وَانْصَرَفَ.

وقد حدَّثني بعضُ جُلساء الشَّيخ عبد الله بن حُميد رَحِمَهُ اللهُ أنَّه لما كان قاضيًا ببُريدة وكان كفيفًا، فدخلت المسجدَ بقرةٌ أثناء درسه فانصرفت إليها أعناق الحاضرين من الطَّلبة، فأحسَّ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللهُ بانصرافهم وإقبالِهم علىٰ البقرةِ يلاحظون حركاتِها، فقام الشَّيخ آخذًا نعليه وقال خاتمًا درسه: سبحانك اللّٰهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إلٰه إلَّا أنت أستغفره وأتوب إليك.

فإنَّه لمَّا رأىٰ أنَّهم انصرفوا بقلوبهم إليها علم أنَّهم انصرفوا عن العلم، فلم يكونوا صالحين لأخذه، فأراد تأديبهم بهذا، فقام وتركهم.

ومن الأدب في حلقة العلم أن لا يُغادر بَصرُ المتعلِّم وجه شيخه؛ لأنَّه هو المقصودُ بحضوره، فإذا صار يصرفُ بصره يمنةً ويسرة فإنَّه من جِنس الاختلاس الذي يختلسه الشَّيطان من العبد الذي يكونُ في الصَّلاة، فإنَّ العلم مُلحقٌ بالصَّلاةِ في كثيرٍ من أحكامه، وكثرةُ التَّلفُّت فيه والانصرافِ إلىٰ ما لا ينفع ممّا يقطعُ القلب عن إقباله، فينبغي أن يكون طالب العلم حافظًا لبصره إما ناظرًا إلىٰ شيخه أو إلىٰ كتابه الذي يقرأُ فيه، ولا يزيدُ عن ذلك فيما لا حاجة منه.

وَحَضَرَ شَابٌّ مَجْلِسَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ فجعَلَ يَتَرَأَّسُ وَيَتَكَلَّمُ وَيَتَكَبَّرُ بِالْعِلْمِ، فَغَضِبَ سُفْيَانُ وَقَالَ: لَمْ يَكُنِ السَّلَفُ هَكَذَا، لَمْ يَكُنِ السَّلَفُ هَكَذَا، كَانَ أَحَدُهُمْ لَا يَدَّعِي الْإِمَامَةَ وَلَا يَجْلِسُ فِي الصَّدْرِ حَتَّىٰ يَطْلُبَ هٰذَا الْعِلْمَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَأَنْتَ تَتَكَبَّرُ عَلَىٰ مَنْ هُوَ أَسَنُّ مِنْكَ، قُمْ عَنِّي! وَلَا أَرَاكَ تَدْنُو مِنْ مَجْلِسِي.

وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: إِذَا رَأَيْتَ الشَّابَّ يَتَكَلَّمُ عِنْدَ الْمَشَايِخِ وَإِنْ كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعِلْمِ مَبْلَغًا فَآيِسْ مِنْ خَيْرِهِ فَإِنَّهُ قَلِيلُ الْحَيَاءِ.

وَإِنِ احْتَاجَ الْمُعَلِّمُ إِلَىٰ إِخْرَاجِ الْمُتَعَلِّمِ مِنْ مَجْلِسِهِ زَجْرًا لَهُ فَلْيَفْعَلْ كَمَا فَعَلَ سُفْيَانُ وَكَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ شُعْبَةُ رَحِمَهُ اللهُ مع عَفَّانَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي دَرْسِهِ.

قوله: (وَكَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ شُعْبَةُ رَحِمَهُ اللهُ مَعَ عَفَّانَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي دَرْسِهِ) أي: بطردِهِ، فإنَّه كان إذا شَغَّبَ عليه أخرجه من حلقته.

ومن عجائب أحوال الخلق أنَّ المتعلِّمَ إذا طُرد من قاعةِ الدِّراسة النِّظامية في الجامعة أو ما دونها لم يحملهُ ذلك علىٰ ترك دراسته خشيةَ حرمانه من ذلك المقرَّر؛ بل يرجعُ إلىٰ تلك القاعة مرَّةً أخرىٰ ويحضر حلقةَ ذلك المدرِّس الذي طرده، وإذا أُريدَ حملُ الطَّالبِ في حلقة العلم علىٰ الأدب في مثل هٰذه المجالس أنِفَ الطَّالبُ وترَك الدَّرسَ فلحقهُ الحرمان، وهٰذا من انتكاس أحوال الخلق في أخذِ العلم.

وتأمَّل أنَّ فعل شعبة مع عفَّان أفضىٰ بهرَحِمَهُ اللهُ أن يصير حافظًا عالما، وحدَّث عفَّانٌ عن شعبةَ بكثيرٍ من حديثه لأنَّ الأدب يصيِّرُ الإنسان عارفًا بقدر العلم، مهتمًّا به مقبلًا عليه معظِّمًا له، فيُصيبُ منه مُراده، وسوء الأدب يتجارىٰ بصاحبه فيُحرمُ العلم.

وَقَد يُزْجَرُ الْـمُتَعَلِّمُ بِعَدَمِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَتَرْكِ إِجَابَتِهِ، فَالسُّكُوتُ جَوابٌ كَمَا قَالَ الْأَعْمَشُ.

وَرَأَيْنَا هٰذَا كَثِيرًا مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الشُّيُوخِ مِنْهُمْ الْعَلَّامَةُ ابْنُ بَازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ رُبَّمَا سَأَلَه سَائِلٌ عَمَّا لَا يَنْفَعُهُ فَتَرَكَ الشَّيْخُ إِجَابَتَهُ وَأَمَرَ الْقَارِئَ أَنْ يُوَاصِلَ قِرَاءَتَهُ أَوْ أَجَابَهُ بِخِلَافِ قَصْدِهِ.

الْمَعْقِدُ الثَّامِنَ عَشَرَ
التَّحَفُّظُ فِي مَسْأَلَةِ الْعَالِمِ

فِرَارًا مِنْ مَسَائِلِ الشَّغْبِ..

قوله: (الشَّغْبِ) هو بسكون الغين ولا تحرَّك، وهو تهييجُ الشَّـرِّ، أمَّا تحريها الشَّائعُ في قولهم: (أحداث الشَّغَب) فهٰذا لحنٌ.

وَحِفْظًا لِهَيْبَةِ الْعَالِمِ فَإِنَّ مِنَ السُّؤَالِ مَا يُرَادُ بِهِ التَّشْغِيبُ وَإِيقَاظُ الْفِتْنَةِ وَإِشَاعَةُ السُّوءِ، وَمَنْ آنَسَ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ هٰذِهِ الْـمَسَائِلَ لَقِيَ مِنْهُمْ مَا لَا يُعْجِبُهُ كَمَا مَرَّ مَعَكَ فِي زَجْرِ الْـمُتَعَلِّمِ فَلَابُدَّ مِنَ التَّحَفُّظِ فِي مَسْأَلَةِ الْعَالِمِ وَلَا يُفْلِحُ فِي تَحفُّظِهِ فِيهَا إِلَّا مَن أَعمَلَ أَرْبَعَةَ أُصُولٍ:

أَوَّلُهَا: الْفِكْرُ فِي سُؤَالِهِ لِمَاذَا يَسْأَلُ؟ فَيَكُونُ قَصْدُهُ مِنَ السُّؤَالِ التَّفَقُّهُ وَالتَّعَلُّمُ لَا التَّعَنُّتُ وَالتَّهَكُّمُ، فَإِنَّ مَنْ سَاءَ قَصْدُهُ فِي سُؤَالِهِ يُحْرَمُ بَرَكَةَ الْعِلْمِ وَيُمْنَعُ مَنْفَعَتَهُ.

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَسْأَلُ وَلَهُ فِي سُؤَالِهِ قَصْدٌ بَاطِنٌ يُرِيدُ التَّوَصُّلَ بِهِ إِلَىٰ مَقْصُودٍ لَهُ، فَإِذَا غَفَلَ عَنْهُ الْمُفْتِي وَأَفْتَاهُ بِمَا يُرِيدُ فَرِحَ بِهِ وَأَشَاعَهُ ،وإِذَا تَنَبَّهَ إِلَىٰ قَصْدِهِ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُرَادِهِ وَزَجْرُهُ عَنْ غَيِّهِ.

قَالَ الْقَرَافِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِه «الْإِحْكَامُ»: سُئِلْتُ مَرَّةً عَنْ عَقْدِ النِّكَاحِ بِالْقَاهِرَةِ هَلْ يَجُوزُ أَمْ لَا؟ فَارْتَبْتُ وَقُلْتَ لَهُ -أي للسَّائِلِ- مَا أُفْتِيكَ حَتَّىٰ تُبَيِّنَ لِي مَا الْمَقْصُودُ بِهَذَا الكَلَامُ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّ عَقْدَ النِّكَاحِ بِالْقَاهِرَةِ جَائِزٌ؟ فَلَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّىٰ قَالَ: إِنَّا أَرَدْنَا أَن نَعْقِدَهُ خَارِجَ الْقَاهِرَة فَمُنِعْنَا لِأَنَّهُ اسْتِحْلَالٌ -يَعْنِي نِكَاحَ تَحْلِيلٍ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْأَنْكِحَة الْمُحَرَّمَةِ- فَجِئْنَا لِلْقَاهِرَةِ، فَقُلْتُ لَهُ: لَا يَجُوزُ لَا بِالْقَاهِرَةِ وَلَا بِغَيْرِهَا.

وَوَقَعَ مِثْلُ هٰذَا لِأَبِي الْعَبَّاسِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ الْحَفِيدِ فِي فَتْوَىٰ تَتَعَلَّقُ بِأَهْلِ الذِّمَّةِ ذَكَرَهَا تِلْمِيذُهُ الْبَارُّ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ «إِعْلَام الْمُوَقِّعِينَ» رُدَّتْ عَلَيْهِ غَيْر مَرَّة فِي وَجْهٍ غَيْر الْوَجْه السَّابِق لَهَا، فَكَانَ يَقُولُ: لَا يَجُوزُ، حَتَّىٰ قَالَ فِي آخِرِ مَرَّةٍ: هِيَ الْمَسْأَلَةُ الْمُعَيَّنَةُ وَإِنْ خَرَجَتْ فِي عِدَّةِ قَوَالِبِ.

أَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي فَالتَّفَطُّنُ إِلَىٰ مَا يسْأَلُ عَنْهُ فَلَا تَسْأَلْ عَمَّا لَا نَفْعَ فِيهِ، إِمَّا بِالنَّظَرِ إِلَىٰ حَالِكَ أَوْ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ الْمَسْأَلَةِ نَفْسِهَا.

سَأَلَ رَجُلٌ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ عَنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَمُسْلِمُونَ هُمْ؟ فَقَالَ لَهُ: أَحْكَمْتَ الْعِلْمَ حَتَّىٰ تَسْأَلَ عَنْ ذَا ؟!.

وَمِثْلُهُ السُّؤَالُ عَمَّا لَمْ يَقَعْ أَوْ مَا لَا يُحَدَّثُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا يُخَصُّ بِهِ قَوْمٌ دُونَ قَوْمٍ.

أَمَّا الْأَصْلُ الثَّالِثُ: فَالْانْتِبَاهُ إِلَىٰ صَلَاحِيَّةِ حَالِ الشَّيْخِ لِلْإِجَابَةِ عَنْ سُؤَالِهِ فَلَا يَسْأَلُهُ فِي حَالٍ تَمْنَعُهُ كَكَوْنِهِ مَهْمُومًا أَو مُتَفَكِّرًا أو مَاشِيًا فِي طَرِيقِهِ أَوْ رَاكِبًا لِسَيَّارَتِهِ بَلْ يَتَحَيَّنُ طِيبَ نَفْسِهِ، قَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللهُ سَأَلْتُ أَبَا الطُّفَيْلِي مَسْأَلَةً، فَقَالَ: إِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا.

وَسَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ الْمُبَارَكِ عَنْ حَدِيثٍ وَهُوَ يَمْشِي فَقَالَ: لَيْسَ هٰذَا مِنْ تَوْقِيرِ الْعِلْمِ.

كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَىٰ يَكْرَهُ أَنْ يُسْأَلَ وَهُوَ يَمْشِي.

أَمَّا الْأَصْلُ الرَّابِعُ: فَتيَقُّظُ السَّائِلِ إِلَىٰ كَيْفِيَّةِ سُؤَالِهِ بِإِخْرَاجِهِ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ مُتَأَدِّبَةٍ، فَيُقَدِّمُ الدُّعَاءَ لِلشَّيْخِ وَيُبَجِّلَهُ فِي خِطَابِهِ، وَلَا تَكُونُ مُخَاطَبَتَهُ لَهُ كَمُخَاطَبَتِهِ أَهْلَ السُّوقِ وَأَخْلَاطِ الْعَوَامِّ.

قَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي عُثْمَانَ: كُنَّا عِنْدَ يَحْيَىٰ بْنِ مَعِينٍ فَجَاءَهُ رَجُلٌ مُسْتَعْجِلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا زَكَرِيَّا حَدِّثْنِي بِشَيْءٍ أَذْكُرُكَ بِهِ، فَقَالَ يَحْيَىٰ: أُذْكُرْنِي أَنَّكَ سَأَلْتَنِي أَنْ أُحَدِّثَكَ فَلَمْ أَفْعَلْ.

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ السُّؤَالَاتِ الْوَارِدَةِ عَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ الْيَوْمَ رَأَيْتَ فِي كَثِيرٍ مِنْهَا سَلْبَ التَّحَفُّظِ وَسَفْسَافَ الْأَدَبِ.

وقوله: (وَسَفْسَافَ الْأَدَب) أي رديئه، والسَّفسافُ هو الرَّديءُ من كلِّ شيءٍ.

فَتَرَىٰ مِنْ يَسْأَلُ مُتَهَكِّمًا أَوْ يَسْأَلُ مُحْتَقِرًا يَسْأَلُونَ عَمَّا لَـم يَقَـعْ أَوْ مَـا وَقَـعَ وَلَا يَنْفَـعُ لَا يَتَخَيَّـرُونَ وَقْـتَ الإِيرَادِ الْـمُنَاسِبِ وَلَا يَتَلَطَّفُونَ فِي عَرْضِ الْـمَطَالِبِ، فَسُؤَالَاتُهُمْ مَفَاتِيحُ الْفِتَنِ وَأَسْبَابُ الْـمِحَنِ، وَوَيْـلٌ لَّهُم مِـمَّا يَصْنَعُونَ، وَمَا أَحْوجَ هَؤُلَاءِ إِلَىٰ مَقَالَة زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَـمَّا سَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ شَيْءٍ فَخَلَّـطَ عَلَيْـهِ فَقَالَ زَيْدٌ: اذْهَبْ فَتَعَلَّمْ كَيْفَ تَسْأَلُ، ثُمَّ تَعَالَ فَسَلْ.

وَكَمْ هُمُ الْمُحْتَاجُونَ الْيَوْمَ إِلَىٰ مِثْلِ مَقَالَةِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ؟!

الْمَعْقِدُ التَّاسِعَ عَشَرَ
شَغَفُ الْقَلْبِ بِالْعِلْمِ وَغَلَبَتُهُ عَلَيْهِ

قوله: (شَغَفُ الْقَلْبِ) أي بلوغه شغَافَ القلب وهو غشاؤهُ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[1] ((أي: بلغ حبُّه باطن قلبها)).

(١) يوسف، الآية (٣٠).

فَصِدْقُ الطَّلَبِ لَهُ يُوجِبُ مَحَبَّتَهُ وَتَعَلُّقَ الْقَلْبِ بِه، وَلَا يَنَالُ الْعَبْدُ دَرَجَةَ الْعِلْمِ حَتَّىٰ تَكُونَ لَذَّتُهُ الْكُبْرَىٰ فِيهِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ»: وَمَنْ لَمْ يُغَلِّبْ لَذَّةَ إِدْرَاكِهِ وَشَهْوَتِهِ عَلَىٰ لَذَّةِ جِسْمِهِ وَشَهْوَةِ نَفْسِهِ لَمْ يَنَلْ دَرَجَةَ الْعِلْمِ أَبَدًا وَإِنَّمَا تُنَالُ لَذَّةُ الْعِلْمِ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ ذَكَرَهَا أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ السَّالِفِ:

أَحَدِهَا: بَذْلُ الْوُسْعِ وَالْجُهْدِ.

وَثَانِيهَا: صِدْقُ الطَّلَبِ.

وَثَالِثِهَا: صِحَّةُ النِّيَّةِ وَالْإِخْلَاصِ.

وَلَا تَتِمُّ هٰذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةُ إِلَّا مَعَ دَفْعِ كُلِّ مَا يُشْغِلُ عَنِ الْقَلْبِ.

قوله: (بَذْلُ الْوُسْعِ) بضمِّ الواو أي الطَّاقة، والفتح والكسر فيها لغتان أيضًا، وبهما قُرِئَ خارجَ العشر في قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(١).

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: (صِحَّةُ النِّيَّةِ وَالْإِخْلَاص) **النِّيَّةُ شرعًا: هي إرادةُ القلب العملَ تقرُّبًا إلىٰ الله.**

والإخلاصُ: كما تقدم هو تصفية القلب من إرادة غير الله.

فالعطفُ في كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ: (صِحَّة النِّيَّة وَالْإِخْلَاص) من عطف الخاص علىٰ العام، فالنِّيَّة عملُ القلب، والإخلاص هو الصِّفةُ المطلوبةُ فيها شرعًا .

---

(١) سورة: البقرة، الآية (٢٨٦).

وَمَنْ سَبَرَ هٰذِهِ اللَّذَّةَ فِي أَحْوَالِ السَّابِقِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ رَأَىٰ عَجَبًا، فَلِسَانُ أَحَدِهِمْ:

مَـا لَـذَّتِي إِلَّا رِوَايَـةُ مُسْـنَدِ ... قَـدْ قُيِّـدَتْ بِفَصَـاحَةِ الْأَلْفَـاظِ
وَمَجَـالِسٌ فِيهَـا تَحِـلُّ سَـكِينَةٌ ... وَمُـذَاكَرَاتُ مَعَاشِـرِ الْحُفَّـاظِ

إِنَّ لَذَّةَ الْعِلْمِ فَوْقَ لَذَّةِ السُّلْطَانِ وَالْحُكْمِ الَّتِي تَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا نُفُوسٌ كَثِيرَةٌ، وَتُبْـذَلُ لِأَجْلِهَـا أَمْـوَالٌ وَفِيـرَةٌ، وَتُسْفَكُ دِمَاءٌ غَزِيرَةٌ.

بَاتَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّسَفِيُّ مَهْمُومًا مِنْ ضِيقِ الْبَالِ وَسُوءِ الْحَالِ وَكَثْرَةِ الْعِيَالِ فَوَقَـعَ فِـي خَـاطِرِهِ فَـرْعٌ مِـنْ فُرُوعِ مَذْهَبِهِ -وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ حَنَفِيًّا- فَأُعْجِبَ بِهِ فَقَامَ يَرْقُصُ فِي دَارِهِ، وَيَقُولُ: (أَيْنَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ؟! أَيْنَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ؟!)

إِذَا خَـاضَ فِـي بَحْـرِ التَّفَكُّـرِ خَـاطِرِي ... عَلَـىٰ دُرَّةٍ مِـنْ مُعْضِـلَاتِ الْمَطَالِـبِ
حَقَرْتُ مُلُوكَ الْأَرْضِ فِي نَيْلِ مَا حَـوَوْا ... وَنِلْـتُ الْمُنَـىٰ بِالْكُتْـبِ لَا بِالْكَتَائِـبِ

وَلِهٰذَا كَانَتِ الْمُلُوكُ تَتُوقُ إِلَىٰ لَذَّةِ الْعِلْمِ وَتُحِسُّ فَقْدَهَا وَتَطْلُبُ تَحْصِيلَهَا.

قِيلَ لِأَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ -الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ الْمَشْهُورِ الَّذِي كَانَتْ مَمَالِكُهُ تَمْلَأُ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ-: هَلْ بَقِيَ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا شَيْءٌ لَمْ تَنَلْهُ؟ فَقَالَ وَهُوَ مُسْتَوٍ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ وَسَرِيرِ مُلْكِهِ: بَقِيَتْ خَصْلَةٌ أَنْ أَقْعُدَ عَلَـىٰ مِصْطَبَةٍ وَحَوْلِي أَصْحَابُ الْحَدِيثِ -أَيْ طُلَّابُ الْعِلْمِ- فَيَقُولُ الْمُسْتَمْلِي: مَنْ ذَكَرْتَ رَحِمَكَ اللهُ؟ يَعْنِي فَيَقُولُ: حَدَّثَنَا فُلَانٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا فُلَانٌ، وَيَسُوقُ الْأَحَادِيثَ الْمُسْنَدَةَ.

فَانْظُرْ إِلَىٰ شِدَّةِ افْتِقَارِ هٰذَا الْخَلِيفَةِ إِلَىٰ لَذَّةِ الْعِلْمِ وَطَلَبِهِ تَحْصِيلِهَا وَجَوْعَتِهِ إِلَيْهَا.

وَمَتَىٰ عُمِرَ الْقَلْبُ بِلَذَّةِ الْعِلْمِ سَقَطَتْ لَذَّاتُ الْعَادَاتِ وَذَهَلَتِ النَّفْسُ عَنْهَا، فَالنَّظْرُ بْنُ شُـمَيْلٍ يَقُـولُ: لَا يَجِدُ الْمَرْءُ لَذَّةَ الْعِلْمِ حَتَّىٰ يَجُوعَ وَيَنْسَىٰ جُوعَهُ.

بَلْ تَسْتَحِيلُ الْآلَامُ لَذَّةً بِهٰذِهِ اللَّذَّةِ.

وَمُحَمَّدُ بْنُ هَارُونَ الدِّمَشْقِيُّ يَقُولُ:

لَمَحْبَـرَةٌ تُجَالِسُـنِي نَهَـارِي ... أَحَـبُّ إِلَـيَّ مِـنْ أُنْسِ الصَّـدِيقِ
وَرُزْمَةُ كَاغِدٍ فِـي الْبَيْـتِ عِنْـدِي ... أَحَـبُّ إِلَـيَّ مِـنْ عَـدْلِ الـدَّقِيقِ
وَلَطْمَـةُ عَـالِمٍ فِـي الْخَـدِّ مِنِّـي ... أَلَذُّ لَـدَيَّ مِـنْ شُـرْبِ الرَّحِيـقِ.

وَلَا تَعْجَبْ فَمَا هٰذِهِ الْأَحْوَالُ إِلَّا مَسُّ عِشْقِ الْعِلْمِ، فَابْنُ الْقَيِّمِ يَقُولُ فِي «رَوْضَةِ الْمُحِبِّينَ»: وَأَمَّا عُشَّاقُ الْعِلْمِ فَأَعْظَمُ شَغَفًا بِهِ وَعِشْقًا لَهُ مِنْ كُلِّ عَاشِقٍ بِمَعْشُوقِهِ، وَكَثِيرٌ مِـنْهُمْ لَا يَشْـغَلُهُ عَنْـهُ أَجْمَـلُ صُـورَةٍ مِـنَ

الْبَشَرِ، فَأَيْنَ هٰذَا الشَّغَفُ يَا طُلَّابَ الْعِلْمِ مِمَّنْ يُقَدِّمُ حَظَّهُ مِنْ عِرْسِهِ عَلَىٰ حَظِّهِ مِنْ دَرْسِهِ، وَيَكُونُ جُلُوسُهُ إِلَىٰ السُّمَّارِ، وَشُيُوخِ الْقَمْرَاءِ أُحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْجُلُوس إِلَىٰ الْعُلَمَاء، وَتَقْوَىٰ عَزِيمَتُه لِلتَّنَقُّل فِي الْفَلَوَاتِ وَلَا تَقْوَىٰ عَلَىٰ السَّيْرِ فِي نَقْلِ الْمَعْلُومَاتِ، وَيَنْهَضُ نَشِيطًا لِقَنْصِ الطَّيْرِ وَيَرْقُدُ كَسَلًا عَنْ صَيْدِ الْخَيْرِ، فَمَا حَظُّ هَؤُلَاءِ -وَكَثِيْرٌ هُمْ- مَا حَظُّهُم مِن تَعْظِيمِ الْعِلْمِ وَقُلُوبُهُمْ مَأْسُورَةٌ بِمَحَبَّةِ غَيْرِهِ.

قوله: (مِمَّن يُقَدِّم حَظَّه مِنْ عِرْسِه عَلَىٰ حَظِّه مِن دَرْسِه) العِرس -بكسر العين- امرأةُ الرَّجل، والمرادُ أنَّه يقدِّم حظَّه من أهله استمتاعًا بالمباح الذي يمكنهُ إدراكه علىٰ حظِّه من العلم النَّافع الذي يفوته.

وقوله: (وَيَكُونُ جُلُوسُهُ إِلَىٰ السُّمَّارِ وَشُيُوخِ القَمْرَاءِ) شيوخُ القمراءِ كما روىٰ الرَّامهرمزي عن الأعمش في كتاب «المحدِّث الفاصل» أنه كان يقول: إذا رأيتُ الشَّيخَ ولم يكتب الحديث فاصفعهُ فإنَّه من شيوخِ القمراء.

قال سهلُ بن إسماعيل -شيخ الرامهرمزي- لابن عقبة وهو شيخه محمَّد بن عقبة الشَّيباني: ما معنىٰ شيوخ القمراء؟ فقال: شيوخٌ دُهريون -أي: منسوبون إلىٰ الدَّهر لطول أعمارهم- يجتمعون في ليالي القمر، فيتحدَّثون بأيَّام النَّاس ولا يُحسن أحدُهم أن يتوضَّأ للصلاة. انتهىٰ، وهو في كتاب «المحدث الفاصل» للرامهرمزي، وما أكثرَ شيوخَ القمراء في هٰذا الزمن.

الْـمَعْقِدُ الْعِشْرُونَ
حُفِظُ الْوَقْتِ فِي الْعِلْم

إِذَا كَانَ الْعِلْمُ أَشْرَفَ مَطْلُوبٍ وَالْعُمْرُ يُطْوَىٰ كَجَلِيدٍ يَذُوبُ، فَعَيْنُ الْعَقْلِ حِفْظُ الْوَقْتِ فِيهِ، وَالْخَوْفُ مِنْ تَقَضِّيهِ بِلَا فَائِدَةٍ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُنِي وَإِيَّاكَ عَلَىٰ الْمُبَالَغَةِ فِي رِعَايَتِهِ.

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَيْدِ خَاطِرِهِ»: يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ شَرَفَ زَمَانِهِ وَقَدْرَ وَقْتِهِ فَلَا يُضَيِّعَ مِنْهُ لَحْظَةً فِي غَيْرِ قُرْبَةٍ، وَيُقَدِّمَ فِيهِ الْأَفْضَلَ فَالْأَفْضَلَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

وفي هٰذا المعنىٰ أيضًا ما جاءَ في خاتمة «المقدِّمة العِزِّيَّة» وهي من المتون المختصرة عند المالكية، قول صاحبها: (وينبغي للإنسان أن لا يُرىٰ إلا مُحصِّلًا حسنةً لمعاده، أو درهما لمعاشه).انتهىٰ كلامه.

وَمَنْ هُنَا عَظُمَتْ رِعَايَةُ الْعُلَمَاءِ لِلْوَقْتِ حَتَّىٰ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِي الْبَزَّاز مَا ضَيَّعْتُ سَاعَةً مِّنْ عُمْرِي فِي لَهْوٍ أَوْ لَعِبٍ.

وَقَالَ أَبُو الْوَفَاءِ بْنُ عَقِيلٍ -الَّذِي صَنَّف كِتَابَ الفُنُونِ فِي ثَمَانِمِائَةِ مُجَلَّدٍ-: إِنِّي لَا يَحِلُّ لِي أَنْ أُضَيِّعَ سَاعَةً مِّنْ عُمْرِي.

وَبَلَغَتْ بِهِمُ الْحَالُ أَنْ يُقْرَأَ عَلَيْهِمْ حَالَ الْأَكْلِ، فَلَقَدْ كَانَ أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْبَلْقَاسِيِّ الْمُتَوَفَّىٰ عَنِ ثَمَانِيَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةٍ يُقْرِئُ الْقِرَاءَاتِ فِي حَالِ أَكْلِهِ خَوْفًا مِنْ ضَيَاعِ وَقْتِهِ فِي غَيْرِهَا، فَكَانَ أَصْحَابُهُ يَقْرَؤُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَتَنَاوَلُ مَأْكَلَهُ وَمَشْرَبَهُ.

بَلْ كَانَ يُقْرَأُ عَلَيْهِم وَهُمْ فِي دَارِ الْخَلَاءِ فَكَانَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْجَدُّ رَحِمَهُ اللهُ إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ قَالَ لِبَعْضِ مَنْ حَوْلَهُ: اقْرَأْ فِي هٰذَا الْكِتَابِ وَارْفَعْ صَوْتَكَ.

((ما ذكر من القراءة علىٰ ابن تيمية حال دخوله الخلاء لا يقدح في إعظامه العلم، لأن القارئ كان خارج الكنيف مباعدا له، وإنما أرادوا حفظ الوقت لئلا يذهب شيئا من زمانهم دون فائدة))

وممَّا يُضالعُ هٰذه الحال التي اتَّفقت لابن تيمية الجدِّ في القراءةِ عليه حال دخول الخلاءِ، ما ذكره ابن عساكر في «تاريخ دمشق» في ترجمةِ ابن أبي حاتم عن أحمد بن علي الرَّقَّام قال: (سألتُ عبد الرَّحمٰن -أي ابن أبي حاتم- عن اتفاقِ كثرة السَّماع له من أبيه، فقال: ربما كان يأكلُ وأقرأُ عليه، ويمشي وأقرأُ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيءٍ وأقرأُ عليه) انتهىٰ.

وَتَجَلَّتْ هٰذِهِ الرِّعَايَةُ لِلْوَقْتِ عِنْدَ الْقَوْمِ رَحِمَهُمُ اللهُ فِي مَعَالِمَ عِدَّةٍ لَمْ تَبْلُغْهَا الْحَضَارَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ قَاطِبَةً.

قوله: (لَمْ تَبْلُغْهَا الْحَضَارَاتُ الْإِنْسَانِيَّة) الإنسانيَّةُ منسوبةٌ إلىٰ الإنسان، وهو اسمُ جمعٍ يقعُ علىٰ الذَّكر والأنثىٰ والواحد والجمع، مشتقٌّ من الإنس أو النّسيان، وهو بمعنىٰ البشرية أو الآدمية، وليس مختصًّا بالصِّفات الحسنة، وما جرىٰ به لسان المتأخِّرين من قولهم: فلانٌ إنساني، يُريدون أنَّه محمودٌ لتضمُّنه صفاتٍ حسنة، فهو لحنٌ، فإنَّ العربَ لا تعرف هٰذا المعنىٰ، وإنَّما تكونُ هٰذه النِّسبة نسبةً إلىٰ كونه بشرًا آدميًّا لا يزيدُ علىٰ ذلك المعنىٰ بشيءٍ، ومن هنا هجرتها العربُ في ممادحها في الأشعار نظما ونثرا فلا يُعرف أحدٌ منهم مدح ممدوحه فوصفه بالإنسانية معظِّمًا له بها؛ لأنَّ الإنسانية لا تعدُ الوصف بكونه بشرًا آدميًّا، وهٰذا أمرٌ مشتركٌ بين الخلق كافة من ذرِّيّة آدم.

مِنْهَا: كَثْرَةُ دُرُوسِهِمْ، فقدْ كَانَ النَّوَوِي رَحِمَهُ اللهُ يقرَأُ كُلَّ يَوْمٍ اثْنَيْ عَشَرَ دَرْسًا عَلَىٰ مَشَايِخِهِ، وَالشَّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ صَاحِبُ «نِيلِ الْأَوْطَارِ» تَبْلُغُ دُرُوسُهُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ دَرْسًا مِنْهَا مَا يَأْخُذُهُ عَنْ مَشَايِخِهِ وَمِنْهَا مَا يَأْخُذُهُ عَنْهُ تَلَامِذَتُهُ.

وَأَرْبَىٰ مَحْمُودُ الْآلُوسِي صَاحِبُ التَّفْسِيرِ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا فَقَدْ كَانَ يُدَرِّسُ فِي الْيَوْمِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ دَرْسًا، وَلَمَّا اشْتَغَلَ بِالتَّفْسِيرِ وَالْإِفْتَاءِ نَقَصَتْ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ عَشَرَ دَرْسًا.

ثُمَّ رَأَيْتُ فِي تَرْجَمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ جَمَاعَةٍ أَنَّ دُرُوسَهُ تَبْلُغُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ نَحْوَ خَمْسِينَ دَرْسًا.

وَمِنْهَا: كَثْرَةُ مَدْرُوسَاتِهِمْ، فَقَدْ دَرَسَ ابْنُ التَّبَّانِ «الْمُدَوَّنَةَ» نَحْوَ أَلْفِ مَرَّةٍ، وَرُبَّمَا وُجِدَ فِي بَعْضِ كُتُبِ عَبَّاسِ بْنِ الْفَارِسِي بِخَطِّهِ: دَرَسْتُهُ أَلْفَ مَرَّةٍ.

قوله: (دَرَسْتُه أَلْف مَرَّة) أي أعدتهُ ألف مرَّة.

وَكَرَّرَ غَالِبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْـمَعْرُوْفِ بْن عَطِيَّة وَالِدِ صَاحِبِ التَّفْسِيْر الْـمَشْهُورِ «صَحِيحَ الْبُخَـارِي» سَبْعَمِائَة مَرَّة.

وقد استظهرَ الكتَّانيُّ في «فهرس الفهارس» في ترجمةِ ابن عطية أنَّه كان يقرأُ صحيح البخاري في السَّنة نحو عشرَ مراتٍ تقريبًا حتىٰ كمُل له هٰذا العدد الذي نُقل عنه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

وَمِنْهَا: كَثْرَةُ مَكْتُوبَاتِهِمْ، فَأَحْمَدُ بْنِ عَبْدِ الدَّائِمِ الْـمَقْدِسِيُّ أَحَدُ شِيُوخِ الْعِلْمِ مِنَ الْحَنَابِلَةِ كُتِبَ بِيَدِهِ أَلْفَـيْ مُجَلَّدٍ، وَوَقَعَ مِثْلُه لِابْنِ الْجَوْزِي.

وَمِنْهَا: كَثْرَةُ مَقْرُوءَاتِهِم، فَابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ طَالَعَ وَهُوَ بَعْدُ فِي الطَّلَبِ عِشْرِيْن أَلْفَ مُجَلَّدٍ.

وَمِنْهَا: كَثْرَةُ شُيُوخِهِم، فَالَّذِينَ جَاوَزَ عَدَدُ شُيُوخِهِمُ الْأَلِفَ كَثِيرٌ فِي هٰذِه الْأُمَّة، وَأَعْجَبُ مَا ذُكِـرَ أَنَّ أَبَـا سَعْدٍ السَّمْعَانِي بَلَغَ عَدَدُ شُيُوخِهِ سَبْعَةَ آلَافِ شَيْخٍ، قَال ابْنُ النَّجَّارِ فِي «ذَيْلِ تَارِيخِ بَغْدَادَ»، وَهٰذَا شَيْءٌ لَـمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ.

ومعنىٰ قوله: (وَهٰذَا شَيْءٌ لَم يَبْلُغْهُ أَحَدٌ) أي في كثرةِ شيوخه، وقد روىٰ الذَّهبيُّ بإسناده في «سـير أعـلام النُّبلاء» عن أبي عبد الله بن منده في ترجمته؛ قال: رأيتُ ثلاثين ألفَ شيخٍ؛ فعشرةُ آلافٍ ممن أروي عـنهم واقتدي بهم، وعشـرةُ آلافٍ ممن أروي عنهم ولا أقتدي بهم، وعشـرةُ آلافٍ من نظرائي وليس أحدٌ منهم إلَّا أحفظُ عنه عشرةَ أحاديثٍ أقلَّها. انتهىٰ كلامه، وهٰذا يقتضي أنَّ له ثلاثين ألـف شـيخٍ، فهـو فـوقَ مـن روىٰ عن سبعة آلاف؛ لكن في إسناده عند الذَّهبي من لم يعرف.

وقد عقَّب عليه الذهبي بقوله رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ: قوله: (إني كتبتُ عن ألفٍ وسبعمائة شيخ) أصح، وهو شـيءٌ يقبل، وناهيك به كثرة. انتهىٰ كلامه.

فالأظهر أنَّ ابن منده لم يبلغ شيوخه هذا العدَّ، وإنَّما شُهر تقديمُ أبي سعد السمعاني في المشيخة، وكـان من حرصه علىٰ العلم أنَّه دخل بلادًا لم يدخلها أكثرُ الحفَّاظ، الذين كانوا في زمانه، وهي بلاد الشَّام التـي كانت تحت أيدي الصَّليبيين، فتخفَّىٰ ودخلَ فيها، وكتبَ عن شيوخها، فانفردَ بالرِّواية عن أهلهـا، وهٰـذا من حرصهِ رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ العلم.

والشَّيخُ عند من سلف يشملُ كل من أفادك فائدةً، ولو قِصَّةً أو بيت شعرٍ، ولـيس مقصـورًا علـىٰ شـيخ التَّعلم أو شيخ التَّخرج، ولأجل هٰذا أربوا بهذه الأعداد التي نستكثرُها نحن، لكن من رعىٰ هٰـذا في نفسـه فصار إذا سمعَ فائدة ولو كانت بيت شعرٍ أو قصَّة دوَّنها وعدَّ هٰذا في شيوخه، فإنَّه يُحصِّـل كما حصَّـلوا، وليس مرادهم الاستكثارُ فقط إنَّما مرادهم حفظُ ما يدركون من العلم.

وَمِنْهَا: كَثْرَةُ مَسْمُوعَاتِهِمْ ومَقْرُوءَاتِهِمْ عَلَىٰ شُيُوخِهِمْ مِنَ التَّصَانِيفِ الْمُطَوَّلَةِ وَالْأَجْزَاءِ الصَّغِيرَةِ، فَقَدْ تُعَدُّ بِالْآلَافِ الْمُؤَلَّفَةِ كَمَا وَقَعَ لِابْنِ السَّمْعَانِيِّ الْمَذْكُورِ وَصَاحِبِهِ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي جَمَاعَةٍ آخَرِينَ.

وَمِنْهَا: كَثْرَةُ مُصَنَّفَاتِهِمْ، حَتَّىٰ عُدَّتْ أَلْفَ مُصَنَّفٍ لِجَمَاعَةٍ مِنْ عُلَمَاءِ هٰذِهِ الْأُمَّةِ مِنْهُم عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ حَبِيْبٍ عَالِمُ الْأَنْدَلُسِ وَأَبُو الْفَرَجِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ.

فَاحْفَظْ أَيُّهَا الطَّالِبُ وَقْتَكَ فَلَقَدْ أَبْلَغَ الْوَزِيرُ الصَّالِحُ ابْنَ هُبَيْرَةَ فِي نُصْحِكَ بِقَوْلِهِ:

وَالْوَقْتُ أَنْفَسُ مَا عُنِيتَ بِحِفْظِهِ ... وَأَرَاهُ أَسْهَلَ مَا عَلَيْكَ يَضِيعُ.

قوله: (مَا عُنِيتَ) هو بالبناء للمفعول ومعناه: شُغِلْت. ((ويجوز في (أُرَاهُ) الضَّم والفتح)).

الْخَاتِمَة

إِلَىٰ هُنَا بَلَغَ الْقَوْلُ التَّمَامَ وَحَسُنَ قَطْعُ الكَلَامَ بَالْخِتَامِ، فَيَا شُدَاةَ الْعِلْمِ وَطُلَّابَهُ وَيَا قُصَّادَ الْفِقْهِ وَأَرْبَابَهُ.

قوله: (فَيَا شُدَاة الْعِلْم) الشُّداةُ جمعُ شادي، والشَّادي في العلم هو من أخذَ بطرفٍ منه ((وهي عندهم مرتبة فوق مرتبة المبتدئ)).

امْتَثلُوا مَعَاقِدَ التَّعْظِيمِ وَأَنْتُمْ تُقْبِلُونَ عَلَىٰ مَقَاعِدِ التَّعْلِيمِ تَجِدُوا نَفْعَهُ وَتَحْمَدُوا عَاقِبَتَهُ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّهَاوُنَ بِهَا وَالْعُزُوفَ عَنْهَا، فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ الْعِلْمِ وَمِرْقَاةُ الْفَهْمِ، وَبِهَا تُجْمَعُ الْعُلُوم وَتُوَصَّل، وَبِهَا تُيَسَّرُ الْفُنُونُ وَتُحَصَّل.

فَشَمِّرُوا عَنْ سَاعِدِ الْجِدِّ وَلَا تُشْغَلُوا بِمَيْعَةِ الْجَدِّ.

قوله: (وَلَا تُشْغَلُوا بِمَيْعَةِ الْجَدِّ) أي رفاهيةِ الغِنىٰ وسَعَةِ العيش.

وَاحْفَظُوا رَحِمَكُمُ اللهُ قَوْلَ أَبِي عَبْدِ اللهِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: (طَالِبَ النُّفُوذِ إِلَىٰ اللهِ وَالدَّارِ الآخِرَةِ بَلْ إِلَىٰ كُلِّ عِلْمٍ وَصِنَاعَةٍ وَرِئَاسَةٍ بِحَيْثُ يَكُونُ رَأْسًا فِي ذَلِكَ مُقْتَدًىٰ بِهِ فِيهِ= يَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ شُجَاعًا مِقْدَامًا حَاكِمًا عَلَىٰ وَهْمِهِ.

قوله: (حَاكِمًا عَلَىٰ وَهْمِهِ) الوهْم بسكون الهاء هو الظَّن، أمَّا بتحريكها الوهَم فهو الغَلَط فليس مقصودًا هنا.

غَيْرَ مَقْهُورٍ تَحْتَ سُلْطَانِ تَخَيُّلِهِ زَاهِدًا فِي كُلِّ مَا سِوَىٰ مَطْلُوبِهِ، عَاشِقًا لِمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ، عَارِفًا بِطَرِيقِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَالطُّرُقِ الْقَوَاطِعِ عَنْهُ، مِقْدَامَ الْهِمَّةِ، ثَابِتَ الْجَأْشِ لَا يَثْنِيهِ عَنْ مَطْلُوبِهِ لَوْمُ لَائِمٍ وَلَا عَذْلُ عَاذِلٍ، كَثِيرَ السُّكُونِ، دَائِمَ الْفِكْرِ، غَيْرَ مَائِلٍ مَعَ لَذَّةِ الْمَدْحِ، وَلَا أَلَمِ الذَّمِّ، قَائِمًا بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ مَعُونَتِهِ، لَا تَسْتَفِزُّهُ الْمُعَارَضَاتُ، شِعَارُهُ الصَّبْرُ، وَرَاحَتُهُ التَّعَبُ، مُحِبًّا لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، حَافِظًا لِوَقْتِهِ، لَا يُخَالِطُ النَّاسَ إِلَّا عَلَىٰ حَذَرٍ، كَالطَّائِرِ الَّذِي يَلْتَقِطُ الْحَبَّ بَيْنَهُمْ، قَائِمًا عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، طَامِعًا فِي نَتَائِجِ الِاخْتِصَاصِ عَلَىٰ بَنِي جِنْسِهِ، غَيْرَ مُرْسِلٍ شَيْئًا مِنْ حَوَاسِّهِ عَبَثًا، وَلَا مُسَرِّحًا خَوَاطِرَهُ فِي مَرَاتِبِ الْكَوْنِ، وَمِلَاكُ ذَلِكَ هَجْرُ الْعَوَائِدِ وَقَطْعُ الْعَلَائِقِ الْحَائِلَةِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَطْلُوبِ). انْتَهَىٰ كَلَامُه رَحِمَهُ اللَّهُ فَمَا أَجْمَلَهُ ذِكْرَىٰ وَتَبْصِرَةً!!

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمِلَاكُ ذَلِكَ) مِلَاكُ الأمر -بكسر الميم وفتحها- هو قِوَام الشَّيء أي نظامهُ وعماده، فالنِّظام الذي يجمع ما سبق هو ما أشار إليه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هنا.

وقد ردَّ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في كلامه هٰذا تحصيلَ المطلوبات المعظَّمة إلىٰ أصلين اثنين:

أحدهما: **هجرُ العوائد**، وهو تركُ ما جرت به عادة الخلق، وألفوه ممَّا يُضعفُ السَّيرَ إلىٰ المطلوب.

والثَّاني: **قطعُ العلائق**، أي الوشائجُ والصِّلات التي تحول بين العبد وبين مطلوبه.

وزاد ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في موضع آخرَ من كتاب «الفوائد» **رفضَ العوائق**، وفرَّق رَحِمَهُ اللَّهُ بينها وبين العلائق بأنَّ العوائق هي الحوادثُ الخارجية، وأنَّ العلائق هي التَّعلُّقات القلبية.

فصار تحصيل المطلوبات المعظّمة مردودًا إلىٰ ثلاثة أمور:

أحدها: هجر العوائد.

وثانيها: قطع العلائق.

وثالثها: رفض العوائق .

اللّٰهمَّ يَسِّرْ لَنَا تَعْظِيمَ الْعِلْمِ وَإِجْلَالَهُ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ سَعَىٰ لَهُ كَذَلِكَ فَنَالَهُ، اَللّٰهُم إِنَّا نَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، اللّٰهمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلا.

اللّٰهمَّ اقْسِمْ لَنَا مِن خَشْيَتِك مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعْصِيَتِك، وَمِنْ طَاعَتِك مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَك، وَمِن الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللّٰهمَّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا أَبَدًا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا.

اللّٰهمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا إِلَىٰ النَّارِ مَصِيرَنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَن لَا يَخَافُك فِينَا وَلَا يَرْحَمُنَا.

وبهذا ينتهي شرحُ الكتابِ علىٰ نحوٍ مختصر، يُوقفُ علىٰ مقاصده الكلِّيّة ويبيِّنُ معانيه الإجمالية.

اللّٰهمَّ إنَّا نسألك علمًا في المهمات ومهمًّا في المعلومات، وبالله التَّوفيق.

وقبل أن نختمَ هٰذا المجلس أُريد أن أنبِّهَ إلىٰ أمورٍ:

أحدُها: أنَّ فكرة هٰذا البرنامج هي إقراءُ مهمَّات المتون مع التَّعليق اللَّطيف والتَّنكيت الظَّريف، فتُسردُ المتون مع بيان ما يحتاجُ إليه من المعاني اللَّازمة المناسبة للمحلِّ.

وثانيها: أنَّ غايته تقريب مقاصد الفنون للمبتدئين، وتقريرها في نفوس المتوسِّطين، وتحقيقها للمنتهين، فمنفعته عامَّةٌ للطَّالبين بإذن الله.

وثالثها: أنَّ جدولَ البرنامج سائرٌ علىٰ المثبت في آخر نسخكم، وينبغي أن يصطحبَ الطَّالبُ ما استطاع الكتاب الذي يُشرحُ وتاليه، فقد يمكن الفراغُ من أحد الكتابين قبل وقتِ الآخر فنشرعُ مباشرةً في قراءة الكتاب التَّالي له.

ورابعها: التَّحريضُ علىٰ إغلاق الجوالات لأنَّها تُشوِّش حضور الدَّرس، وتقطعُ إقبال القلب عليه، وتُضعفُ بلوغ الإنسان مقصوده منه، فمن كان معه شيءٌ من هٰذه الأجهزة فليغلقه أو يضعه علىٰ حال صامتٍ، ولا يؤذي المسلمين.

وخامسها: أنَّ من أدب الحلقة في السُّنّة هو القرب منها والدُّخول فيها أمَّا التَّفرُّقُ أوزاعًا، فهٰذا مخالفٌ لسُنّة النَّبي ﷺ وقد جاءَ النهي عنه.

سادسها: أنَّ من رامَ أن يسجِّل هٰذه الدُّروس لنفسه فلا بأس، وليكن خاصًّا به لا يخرجُه لغيره.

وسابعها: التَّحريضُ علىٰ اقتناء النُّسخ المصحَّحة من متون هٰذا البرنامج؛ لأن ذلك أحضر للمنفعة لمن أراد أن يستشرحها في هٰذه الحلقة، ومن كان عندهُ غيرها فليحضره مع العناية بتصحيحها.

وثامنها: أنَّ الدُّروسَ تبدأ بعد الصلوات مباشرةً حرصًا علىٰ جمع الوقت علىٰ إقرائها لئلَّا يتفرَّق في غيره، فإذا فُرِغَ من صلاة الجنازة بعد الصَّلاة المكتوبة سنشرعُ في الدَّرس بإذن الله.

وتاسعها: توجدُ بطاقاتٌ مخصوصةٌ لتسجيل الأسئلة وتقبل الأسئلة المكتوبة فيها دون غيرها، وهٰذه البطاقات لعلها موجودة علىٰ هٰذه الأعمدة القريبة مِنَّا، فمن كان عنده سؤال فإنه يُسجل في هٰذه البطاقة ثم يوصله إليَّ، ونجيب عنه إن شاء الله تعالىٰ وقته المناسب في سير البرنامج.

وما عدا ذلك من الأسئلةِ فإنَّه ممَّا نطلبُ فيه العذر والمسامحة، فإذا قيَّد إنسان في ورقةٍ أخرىٰ فنحن لا ننتفع بتقييده؛ لأنَّ هٰذه الأوراق تُحفظ علىٰ نحو معين، فأحبِّذ أن تكون الأسئلة مكتوبة فيها، ويلحق بها كذلك الأسئلة التي تلقىٰ كفاحًا، فإنَّ الوقت ضيقٌ لكم ولي وجمع النفس علىٰ ما هو أولىٰ أوْلىٰ، فلعلكم ترجئونها إلىٰ سعةٍ من الوقت.

وليذهب كلُّ واحد منكم راشدا في طريقه بعد الفراغ، ولا تزاحموا معلمكم بالاجتماع عليه، فإنَّ أهل العلم والسَّلف الصالح يكرهون ذلك، فاعذرونا منه.

الأمرُ العاشر: توجد في النُّسخ التي وزعها الإخوان أوَّلِ الدَّرس توجد أرقامٌ عليها للحصول علىٰ بقية نسخ البرنامج مجانًا من الهاتف والمكتبة التي أُثبت اسمها علىٰ النسخة، فالنُّسخ التي وزَّعها الإخوان عليها أرقام، هٰذا الرقم هو رقم نسخك عند هٰذه المكتبة، فراجع هٰذه المكتبة واحصل علىٰ بقية النُّسخ وهٰذه نسخٌ وقفية شرطها الحضور للدُّروس والانتفاع بها.

وفَّق الله الجميع لما يحب ويرضىٰ، درسنا المقبل إن شاء الله تعالىٰ بعد صلاة العصر في «ثلاثة الأصول وأدلتها».

وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

۞۞۞۞